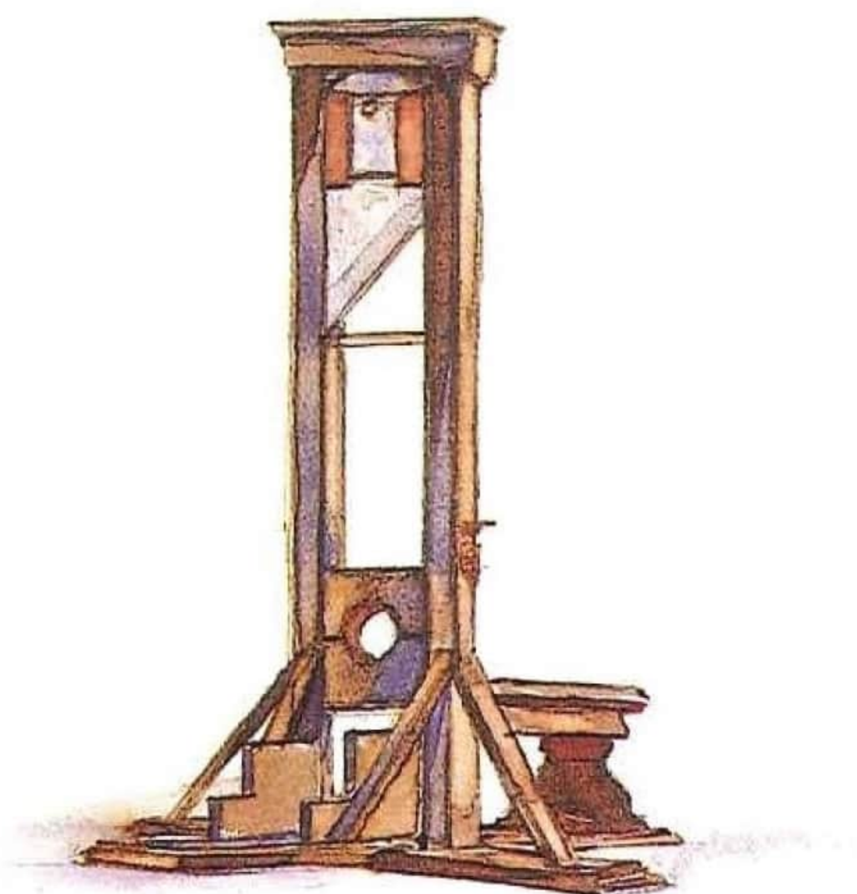


كتب الفراشة - القِصص العالميّة

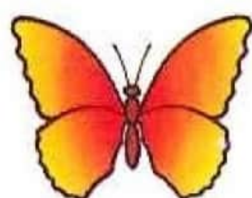
قِصّةُ مَدينتَين

كتب الفراشة - القِصص العالميّة

قِصّةُ مَدِينَتَين



تـأليف : تشارْلز ديكِنز
أعدّها بالعربيّة : الشّريف خاطِر



مكتبة لبنان ناشِرون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢-١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٥
رقم الكتاب 196808 C 01
طبع في لبنان



مقدّمة

في عام ١٨٥٩ ، عِنْدَما كَتَبَ تشارْلز ديكنز «قِصَّة مدينتَيْنِ» الَّتي تحْكِي عَنْ لَندَن وَباريس إبّانَ الثَّوْرَةِ الفَرَنْسيَّة ، كان لا يَزالُ باقِيًا على قَيْدِ الحَياةِ قَليلٌ مِن كِبارِ السِّنِّ مِنْ مُواطِني لَندَن وَباريس الَّذينَ كانَ بِاسْتِطاعَتِهِمْ تَذَكُّرُ تِلْكَ الأحْداثِ العَنيفَةِ الَّتي كانَ لَها أَثَرٌ لا يُنْسى عَلى أَرْبَعَةِ أَجْيالٍ أورُبِّيَّةٍ. وَقَدِ اعْتَمَدَ تشارْلز ديكِنز عَلى كِتابِ «الثَّورَة الفَرَنْسيَّة» لِتوماس كارلَيل ، كَمَصْدَرٍ تاريخِيٍّ وبَدَأَ كِتابَةَ رِوايَتِهِ الَّتي تُنادي بِالعَدالَةِ الاجْتِماعيَّةِ والتَّرابُطِ العائِلِيِّ والصَّداقَةِ إزاءَ العِصْيانِ المَدَنِيِّ العَنيفِ ، والتَّغُّيراتِ السِّياسِيَّةِ الَّتي تَفَشَّتْ في فَرَنْسا في نِهايَةِ القَرْنِ الثّامِنَ عَشَرَ.

تَبْدَأُ الرِّوايَةُ عامَ ١٧٧٥ ، في الوَقْتِ الَّذي كانَتْ فيهِ كُلٌّ مِنْ إنجلترا وَفرنسا في حالَةٍ مِنَ الفَوْضى. كانَتْ هُناكَ فَتاةٌ إنْجليزيَّةٌ تُدْعى «لوسي مانيت» سَمِعَتْ عَنْ قُرْبِ الإفْراجِ عَنْ والِدِها مِنْ سِجْنِ باريس «الباستيل» حَيْثُ أَفْنى شَبابَهُ لِمُدَّةِ ثَمانِيَةَ عَشَرَ عامًا قَضاها في السِّجْنِ ، بِسَبَبِ تَدَخُّلِهِ بِحُسْنِ نِيَّةٍ في فَضيحَةٍ تَخُصُّ عائِلَةَ «إفْريموند» الَّتي اتُّهِمَتْ بِالقَسْوَةِ وَالأرسْتُقْراطِيَّةِ.

وَأَثْناءَ رِحْلَةِ العَوْدَةِ مِنْ باريس ، بَعْدَ أنِ الْتَأَمَ شَمْلُها مَعَ والِدِها ، قابَلَتْ وَأَحَبَّتْ شابًّا إنجليزيًّا يُدْعى تشارلز دارني ، يَعيشُ حَياةً سِرِّيَّةً ، مُنْتَقِلًا بَيْنَ فرنسا

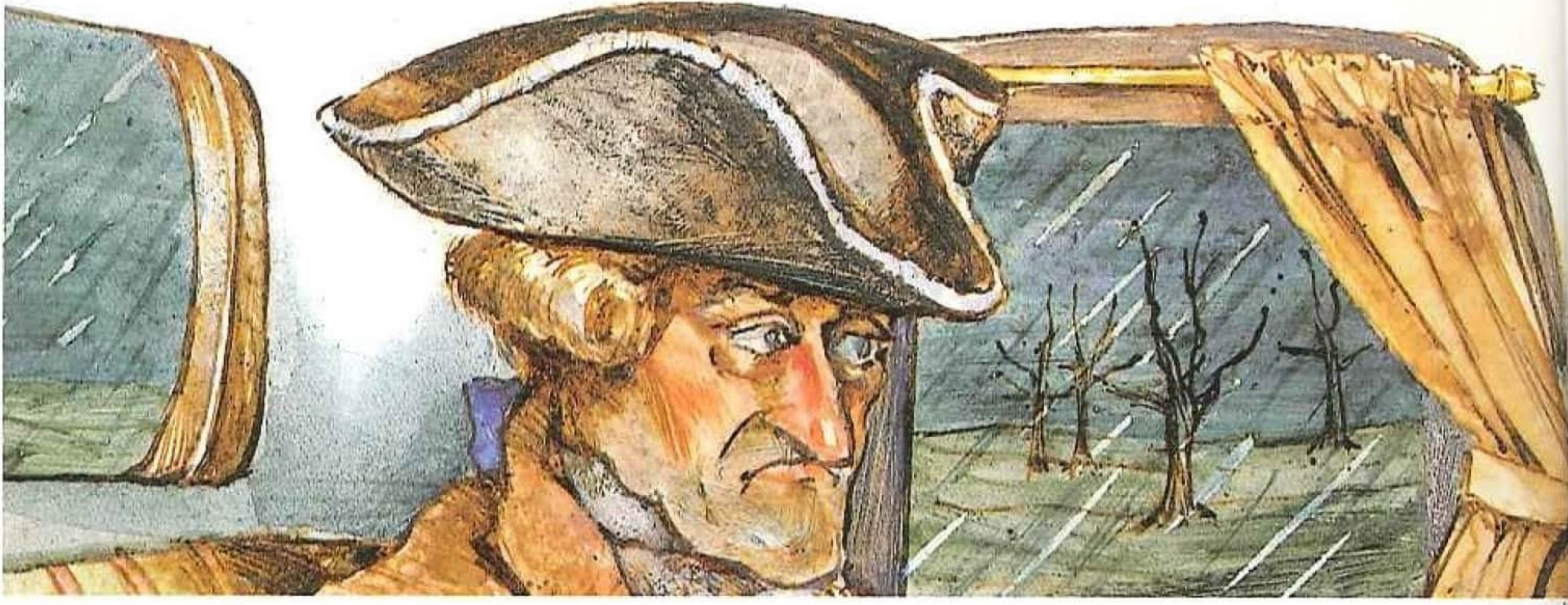
وَإنجلترا لِمُساعَدَةِ الفَلّاحينَ المَقْهورينَ. وَكانَ مِنَ الطَّبيعِيِّ أَنْ يُقْبَضَ عَلى هٰذا الشّابِّ. وَلَمْ يُنْقِذْهُ مِنَ المَوْتِ عَلى أَيْدي الغَوْغاءِ إلّا شَفاعَةُ أَصْدقائِهِ وَأَقْربائِهِ.

وَمِنْ خِلالِ سَرْدِ مانيت لِلْحِكايَةِ يَأْخُذُنا ديكنز في رِحْلَةٍ قاتِمَةٍ إلى فرنسا فَتْرَةَ ما قَبْلَ الثَّوْرَةِ. وَكَما في رواياتِهِ الأُخْرى الَّتي تدورُ أَحْداثُها في شَوارِعِ لندن الخَلْفِيَّةِ، فَإِنَّهُ، في هٰذِهِ الرِّوايَةِ، يُوَفِّرُ لِلْقارِئِ صورَةً حَيَّةً دَقيقَةً بِتَفاصيلِ الظُّروفِ الَّتي كانَ الفَلّاحونَ يَعيشونَها إذْ كانَ هٰؤُلاءِ يَبْحَثونَ عَنْ فُتاتِ الطَّعامِ في القُمامَةِ في نَفْسِ الوَقْتِ الَّذي كانَتْ فيهِ الطَّبَقَةُ الأَرِسْتُقْراطِيَّةُ تَتَنَقَّلُ في عَرَباتِها الفاخِرَةِ مِنْ حَفْلَةٍ تَنَكُّرِيَّةٍ إلى أُخْرى، غَيْرَ عابِئَةٍ بِطَبَقَةِ الفُقَراءِ، مُوَسِّعَةً الهُوَّةَ الاجْتِماعِيَّةَ بَيْنَهُما إلى أَقْصى حَدٍّ. وَبِحُلولِ عامِ ١٧٧٩ تَفَجَّرَتْ في النِّهايَةِ الاضْطِراباتُ الَّتي تَراكَمَتْ وَتَجَسَّدَتْ في الثَّوْرَةِ الشَّعْبِيَّةِ ضِدَّ القِلَّةِ المُتَمَيِّزَةِ، وَأَصْبَحَ سِجْنُ الباستيل غاصًّا بِالسُّجَناءِ وَذُبِحَ بَعْضُ أُولٰئِكَ الأَرِسْتُقْراطِيّينَ، الَّذينَ لَمْ يَسْتَطيعوا الفِرارَ إلى الخارِجِ، عَلى أَيْدي الفَلّاحينَ المَقْهورينَ.

قوبِلَتْ «قِصَّة مَدينَتَيْنِ» عِنْدَما نُشِرَتْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ بِحَماسَةٍ شَديدَةٍ، ثُمَّ أَصْبَحَتْ بِالتَّدْريجِ مِنْ أَحَبِّ الرِّواياتِ إلى القُرّاءِ؛ فَتِلْكَ البانوراما الشّامِلَةُ لِلْأَحْداثِ السِّياسِيَّةِ، وَتِلْكَ اللَّوْحاتُ الرّائِعَةُ لِأُولٰئِكَ الأَوْغادِ الأَشْرارِ، وَالأَبْطالِ الَّذينَ ضَحَّوْا بِأَنْفُسِهِمْ، وَحَرارَةُ قِصَّةِ عائِلَةِ «مانيت» تَجْعَلُنا نُتابِعُ صَفَحاتِ الرِّوايَةِ حَتّى آخِرِها.



قِصَّـةُ مَدينَتَين



ذاتَ لَيْلَةٍ شَتْوِيَّةٍ بارِدَةٍ عامَ ١٧٧٥ ، كانَ السَّيِّدُ «جارڤيس لوري» ، مُديرُ بَنْكِ تيلسون فَرْعِ لندن ، في طَريقِهِ إلى دوڤر عَلى السّاحِلِ الإنْجليزيِّ ، راكِبًا عَرَبَةَ بَريدٍ في مُهِمَّةٍ غَريبَةٍ .

فَمُنْذُ ثَمانِيَةَ عَشَرَ عامًا ، عِنْدَما كانَ يَعْمَلُ بِفَرْعِ البَنْكِ في باريس ، أُلْقِيَ القَبْضُ عَلى أَحَدِ عُمَلائِهِ ، وَهُوَ الدكتور مانيت ، وَأودِعَ السِّجْنَ . وَبَعْدَ مُضِيِّ عِدَّةِ أَشْهُرٍ وَضَعَتْ زَوْجَةُ الدكتور مانيت طِفْلَةً . وَعِنْدَما بَدَأَتْ حَياتُهُما تَتَعَرَّضُ لِلْخَطَرِ ، أَصْبَحَ مِنْ واجِبِهِ أَنْ يَقومَ بِتَرْحيلِ الأُمِّ وَطِفْلَتِها إلى إنْجِلْترا . وَماتَتْ زَوْجَةُ الدكتور مانيت بَعْدَ ذٰلِكَ ، وَقامَتْ الآنِسَةُ بروس بِتَرْبِيَةِ ابْنَتِها لوسي الّتي كانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّ أَباها قَدْ ماتَ .

وَلَمْ يُعِرِ السَّيِّدُ لوري الأَمْرَ أَهَمِّيَّةً كَبيرَةً سَبْعَةَ عَشَرَ عامًا ، حَتّى جاءَ ذٰلِكَ اليَوْمُ عامَ ١٧٧٥ ، حينَ تَلَقّى نَبَأً يُفيدُ أَنَّ الدكتور مانيت قَدْ أُفْرِجَ عَنْهُ ، وَأَنَّهُ يَعيشُ في باريس تَحْتَ رِعايَةِ خادِمِهِ السّابِقِ إرنست ديفارج . بَعَثَ السَّيِّدُ لوري رِسالَةً إلى

لوسي يُخْبِرُها فيها أَنَّهُ سَيُسافِرُ إلى باريس فَوْرًا في مُهِمَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِمُمْتَلَكاتِ والِدِها المِسْكينِ. وَرَحَلَ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ إلى دوڤر، حَيْثُ حَجَزَ غُرْفَتَيْنِ في أَحَدِ الفَنادِقِ الصَّغيرَةِ لَهُ ولِلآنِسَةِ لوسي.

وَقَبْلَ أَنْ تُتاحَ الفُرْصَةُ لِلسَّيِّدِ لوري لِيَتَناوَلَ إفْطارَهُ وَيَسْتَريحَ قَليلًا، أَعْلَنَ النّادِلُ أَنَّ الآنِسَةَ لوسي وَصَلَتْ وَتُريدُ أَنْ تَتَحَدَّثَ إلَيْهِ. حانَ الوَقْتُ لِيَقومَ بِمُهِمَّةٍ صَعْبَةٍ، إذْ كانَ عَلَيْهِ أَنْ يُواجِهَ فَتاةً جَميلَةً في السّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها، وَيَحْكي لَها قِصَّةَ والِدِها المَأْساوِيَّةَ، خاصَّةً وَهُوَ يَعْلَمُ تَمامًا أَنَّهُ لَيْسَ بِالرَّجُلِ الشُّجاعِ، لَكِنَّهُ رَجُلُ أَعْمالٍ لا يَأْلَفُ اسْتِعْمالَ التَّعْبيراتِ العاطِفِيَّةِ الرَّقيقَةِ. وَلِحُسْنِ الحَظِّ، فَإِنَّ لوسي مانيت لَمْ تَكُنْ جَميلَةً فَحَسْبُ، بَلْ كانَتْ تَتَّسِمُ أَيْضًا بِالشَّجاعَةِ. وَرَغْمَ تِلْكَ الظُّروفِ الغَريبَةِ، فَإِنَّها فيما يَبْدو قَدْ أَمَدَّتِ الرَّجُلَ بِمَزيدٍ مِنَ الشَّجاعَةِ وَالارْتِياحِ. وَرَحَلَ الاِثْنانِ إلى باريس، وَبَحَثا عَنِ السَّيِّدِ ديفارج، الَّذي أَصْبَحَ صاحِبَ حانَةٍ في حَيٍّ فَقيرٍ مِنْ أَحْياءِ المَدينَةِ.

لَقَدْ تَغَيَّرَ الكَثيرُ في فَرَنسا خِلالَ العِشْرينَ عامًا الماضِيَةِ مِنْ حُكْمِ لويس الخامِسَ عَشَرَ؛ فَقَدْ كانَتِ البِلادُ في حالَةِ حَرْبٍ، وَفَسَدَ النِّظامُ وَماتَ النّاسُ جوعًا. وَرَغْمَ ما كانَ يُعانيهِ ديفارج وَزَوْجَتُهُ مِنَ الفَقْرِ وَالمَرارَةِ، إلّا أَنَّهُ رَأى مِنْ واجِبِهِ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الدّكتور مانيت بَعْدَ الإفْراجِ عَنْهُ، لِأَنَّهُ كانَ لا يَزالُ يُكِنُّ لَهُ إعْزازًا في قَلْبِهِ.

وَلَقَدْ تَغَيَّرَ الدكتور مانيت أَيْضًا نَتيجَةً لِمُعاناتِهِ، فَلَقَدْ ظَلَّ ما يَقْرُبُ مِنْ عِشْرينَ عامًا يُعاني مِنَ الحَبْسِ الاِنْفِرادِيِّ في «الباستيل» – أَكْبَرِ سِجْنٍ في باريس. وَأَصْبَحَ ذِهْنُهُ شارِدًا لِدَرَجَةِ أَنَّهُ كانَ يَنْسى اسْمَهُ أَحْيانًا. وَيُشيرُ إلى نَفْسِهِ بِأَنَّهُ السَّجينُ رَقْمُ «مائة وَخَمْسَة – البُرْج الشَّمالِيّ».

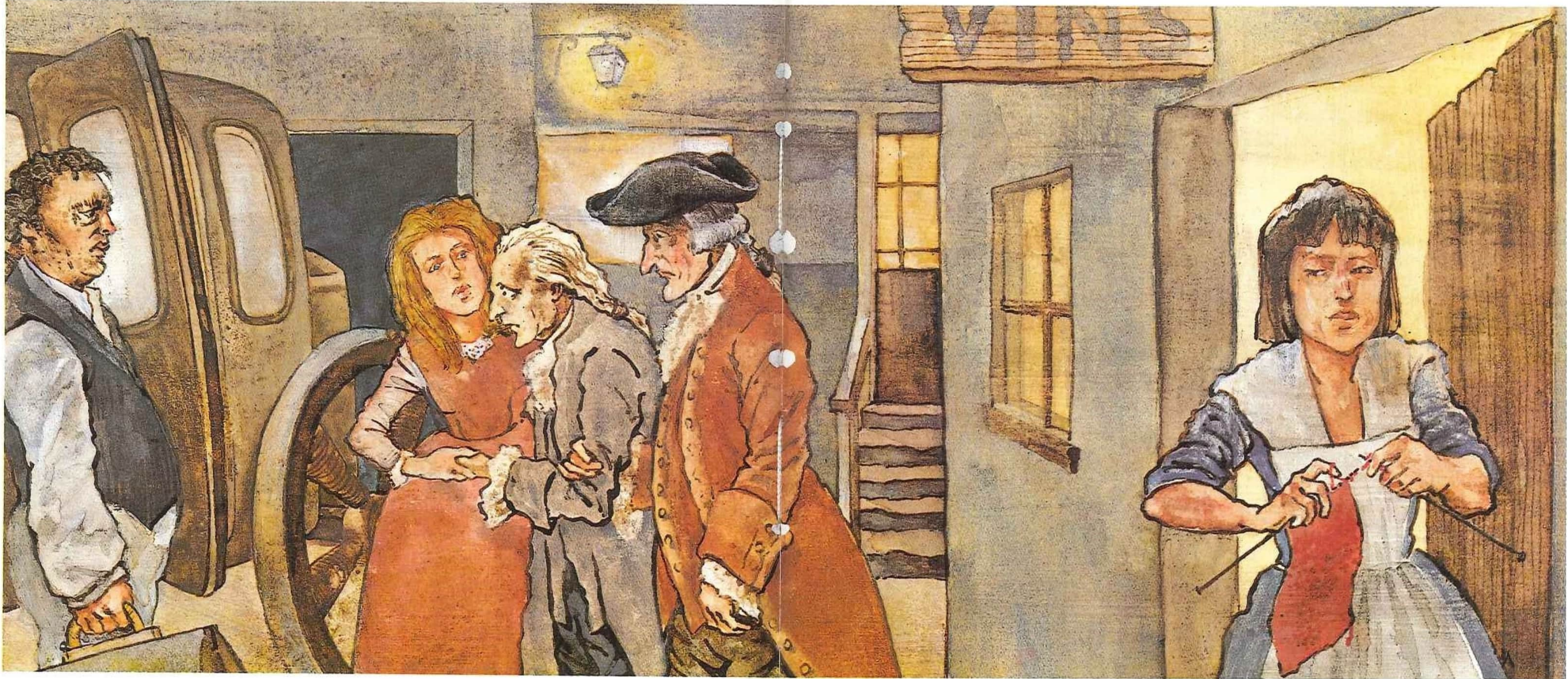
وَلَمْ يَعُدْ يَسْتَطيعُ مُمارَسَةَ مِهْنَتِهِ كَطَبيبٍ ، فَأَخَذَ يَشْغَلُ نَفْسَهُ بَدَلًا مِنْ ذٰلِكَ بِصِناعَةِ الأَحْذِيَةِ . وَتَحَتَّمَ عَلى ديفارج أَنْ يُغْلِقَ عَلَيْهِ بابَ حُجْرَتِهِ بِالمِفْتاحِ ، حِفاظًا عَلى الرَّجُلِ المِسْكينِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَوَّدْ عَلى الحُرِّيَّةِ .



كانَ الدكتور مانيت يَجْلِسُ عَلى مَقْعَدِ إصْلاحِ الأحْذِيَةِ مُنْهَمِكًا تمامًا في عَمَلِهِ الوَضيعِ. فَلَمْ يَسْتَطِعْ إدْراكَ مَغْزى وُصولِ الزُّوّارِ وَلا مُعامَلَةِ لوسي الرَّقيقَةِ لَهُ. وَتَصَوَّرَ وَهُوَ في حالَتِهِ الذِّهْنِيَّةِ المُشَوَّشَةِ هٰذِهِ، أَنَّها ٱبْنَةُ حارِسِ السِّجْنِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُدْرِكَ مَغْزى أَنْ تَجْثُوَ طالِبَةً رِضاهُ.

بَعْدَ ٱجْتِماعِ الشَّمْلِ الغَريبِ بَيْنَ الأَبِ وَٱبْنَتِهِ ٱقْتَرَحَتْ لوسي، أَنْ يَرْحَلا إلى إنجلترا بِأَسْرَعِ ما يُمْكِنُ، وَطَلَبَتْ مِنَ الرَّجُلَيْنِ أَنْ يَتْرُكاها وَحْدَها مَعَ والِدِها وَأَنْ يَذْهَبا لإِعْدادِ تَرْتيباتِ السَّفَرِ اللاّزِمَةِ. في البِدايَةِ كانَ ٱهْتِمامُ السَّيِّدِ لوري وَديفارج يَنْصَبُّ عَلى سَلامَةِ لوسي، لِأَنَّهُما كانا يَعْتَقِدانِ أَنَّ ذٰلِكَ الدكتور المِسْكينَ وَهُوَ في حالَتِهِ الذِّهْنِيَّةِ المُشَوَّشَةِ هٰذِهِ، مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَغْدُوَ عَنيفًا وَيُؤْذِيَها. لٰكِنْ سُرْعانَ ما تَبَدَّدَتْ مَخاوِفُهُما عِنْدَما لاحَظا ذٰلِكَ الأَثَرَ الرَّقيقَ الَّذي تَرَكَتْهُ عَلى والِدِها، فَذَهَبا وَٱنْهَمَكا في السَّعْيِ لِلْحُصولِ عَلى خَيْلٍ وَمَئونَةٍ وَتَجْهيزِ الأَوْراقِ اللاّزِمَةِ لِلرِّحْلَةِ.

وَفي مَساءِ ذٰلِكَ اليَوْمِ، وَبَعْدَ أَنْ وَضَعا أَدَواتِ إصْلاحِ الأَحْذِيَةِ مَعَ باقي الأَمْتِعَةِ أُخْرِجَ الدكتور البائِسُ التّائِهُ، وَسارَ وَهُوَ يُمْسِكُ يَدَ ٱبْنَتِهِ الحَبيبَةِ في سُكونٍ، عَبْرَ الفِناءِ الخالي.



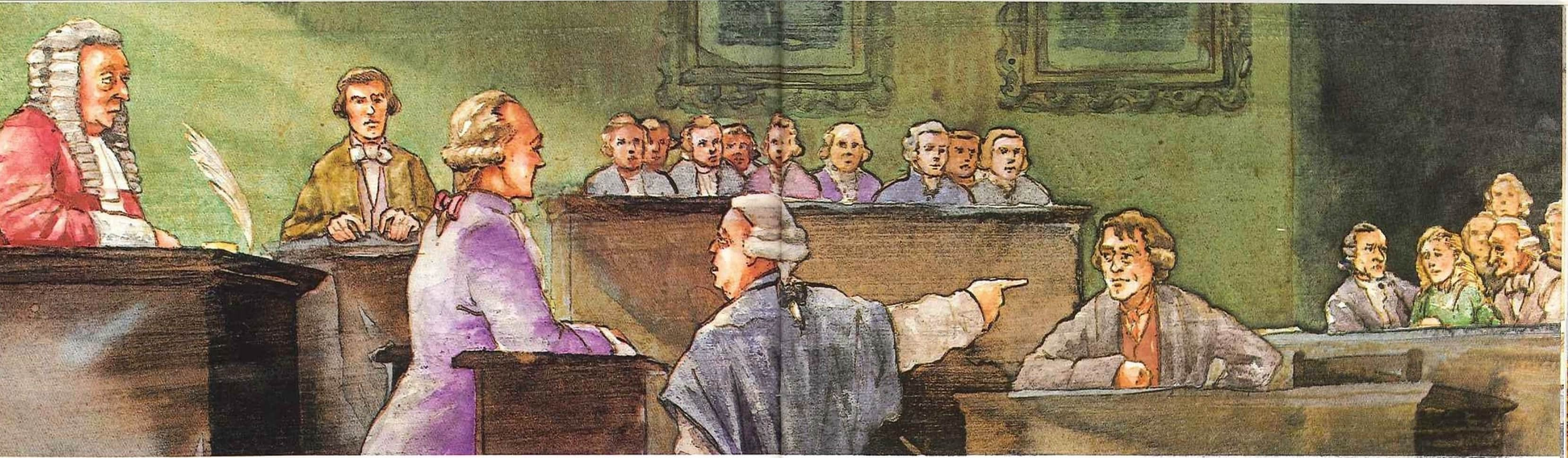


وَبَيْنَما كانَ السَّيِّدُ لوري وَمَنْ في عُهْدَتِهِ يَتَحَرَّكُ بِالعَرَبَةِ الَّتي كانَتْ تَنْتَظِرُهُ إلى إنْجِلْترا ، حَيْثُ الحُرِّيَّةُ ، كانَ هُناكَ شَخْصٌ يُراقِبُهُمْ ، هِيَ السَّيِّدَةُ ديفارج الَّتي كانَتْ تَسْتَنِدُ إلى بابِ الحانَةِ ، تَشْتَغِلُ بِالإبْرَةِ ، وَلا تَرى شَيْئًا تَقْريبًا .

وَتَمَّتِ العَوْدَةُ إلى إنْجِلْترا دونَ حُدوثِ أَيَّةِ عَقَباتٍ تَقْريبًا . وَكانَ هُناكَ مُسافِرٌ آخَرُ فَقَطْ عَلى العَبّارَةِ – شابٌّ وَسيمٌ ، قامَ بِمُساعَدَةِ الفَتاةِ وَوالِدِها المَريضِ ، وَكانَ يَتَجاوَبُ مَعَها أَحْيانًا في أَحاديثَ عادِيَّةٍ غَيْرِ ذاتِ أَهَمِّيَّةٍ ، وَعِنْدَما وَصَلوا إلى إنْجِلْترا وَتَمَّتِ الرِّحْلَةُ بِنَجاحٍ ، اَفْتَرَقَ كُلٌّ مِنْهُما إلى حالِ سَبيلِهِ .

وَقَدْ أَدَّتْ هٰذِهِ المُصادَفَةُ غَيْرُ المُتَوَقَّعَةِ الَّتي حَدَثَتْ عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ ، إلى الْتِقائِهِمْ جَميعًا مَرَّةً ثانِيَةً بَعْدَ مُرورِ خَمْسِ سَنَواتٍ عامَ ١٧٨٠ ، في ظُروفٍ غَريبَةٍ وَسَيِّئَةٍ لِلْغايَةِ . فَقَدْ حَدَثَ أَنْ قُبِضَ عَلى هٰذا الشّابِّ الغَريبِ ، الذي كانَ يُدْعى تشارلز دارني ، بِتُهْمَةِ التَّجَسُّسِ لِحِسابِ فَرَنسا ضِدَّ إنْجِلْترا عِنْدَما كانَتا في حالَةِ حَرْبٍ . وَوَقَفَ تشارلز دارني الَّذي كانَ يَبْلُغُ الخامِسَةَ وَالعِشْرينَ أَمامَ مَحْكَمَةِ لندن الشَّهيرَةِ «الأولد بيلي» بِتُهْمَةِ الخِيانَةِ العُظْمى ، وَعُقوبَتُها الإعْدامُ . وَتَوَلّى مُهِمَّةَ الدِّفاعِ عَنْهُ المُحامي «سترايفر» وَمُساعِدُهُ «سيدني كارتون» ، وَهُوَ مُحامٍ مُحَنَّكٌ ذو خِبرَةٍ .

كانَتْ مُهِمَّةً صَعْبَةً بِالنِّسْبَةِ لِلسَّيِّدِ لوري وَالدّكتور مانيت وَلوسي أَنْ يَحْضُروا كَشُهودٍ في هٰذِهِ القَضِيَّةِ . كانَتِ التُّهْمَةُ تَسْتَنِدُ إلى أَنَّ هُناكَ قَوائِمَ عَنْ مَواقِعِ القُوّاتِ الإنْجليزِيَّةِ ، وَمَدى اَسْتِعْدادِها لِلْحَرْبِ وُجِدَتْ في حَوْزَةِ دارني . وَقَدْ عارَضَ السَّيِّدُ سترايفر مُحامي الدِّفاعِ بِأَنَّ هٰذِهِ القَوائِمَ الَّتي وُجِدَتْ في حَوْزَةِ المُتَّهَمِ لَيْسَتْ بِخَطِّ المُتَّهَمِ ، وَمِنَ المُمْكِنِ أَنْ تَكونَ قَدْ دُسَّتْ بَيْنَ حاجاتِهِ مِنْ قِبَلِ شَخْصٍ ما يَحْمِلُ ضَغينَةً لَهُ ، عِلاوَةً عَلى أَنَّ كُلَّ الشُّهودِ المُسْتَدْعَيْنَ لَهُمْ سِجِلّاتٌ إجْرامِيَّةٌ ، وَلِذا فَإِنَّهُ لا يُعْتَدُّ بِشَهادَتِهِمْ .



بَعْدَ ذٰلِكَ سُمِعَتْ شَهادَةُ كُلٍّ مِنَ السَّيِّدِ لوري والدكتور مانيت ولوسي. وَتَأَكَّدَ مِنْ شَهادَتِهِمْ أَنَّهُمْ سافَروا بِالفِعْلِ مَعَ المُتَّهَمِ عَلى العَبّارَةِ مِنْ فرنسا إلى إنْجلترا مُنْذُ خَمْسِ سَنَواتٍ، وَأَنَّ المُتَّهَمَ جاءَ إلى ظَهْرِ العَبّارَةِ حَوالى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ بَعْدَ نِقاشٍ مَعَ اثْنَيْنِ مِنَ الفَرَنْسِيِّينَ وَتَبادُلِ أَوْراقٍ مُعَيَّنَةٍ.

كانَ مِنَ الصَّعْبِ بِالنِّسْبَةِ لِدارني أَنْ يَقِفَ أَمامَ الجُمْهورِ في المَحْكَمَةِ، لٰكِنْ عِنْدَما نودِيَ عَلى لوسي لِتَقِفَ عَلى مِنَصَّةِ الشَّهادَةِ ذَهَبَ رَوْعُهُ. وَقَدْ وُجِهَ بِشَبابِها وَجَمالِها بِالإِضافَةِ إلى عَطْفِها عَلَيْهِ فَارْتَعَشَتْ شَفَتاهُ في مُعاناةٍ.

اِنْفَجَرَتْ لوسي في البُكاءِ أَثْناءَ اسْتِجْوابِها وَقالَتْ: «لَقَدْ كانَ عَطوفًا وَكَريمًا، وَساعَدَ والِدي. وَآمُلُ أَلَّا أَرُدَّ جَميلَهُ بِأَنْ أُسَبِّبَ لَهُ أَيَّ أَذًى.» وَكانَ لِمَشاعِرِها البَسيطَةِ أَثَرٌ لَدى المَحْكَمَةِ لِتَنْظُرَ بِعَيْنِ الرَّأْفَةِ وَالعَطْفِ لِلْمُتَّهَمِ.

وَلَقَدْ أَخَذَتِ التُّهْمَةُ ضِدَّ تشارلز دارني مَجْرًى غَيْرَ مُتَوَقَّعٍ عَلى الإِطْلاقِ، حَيْثُ

اسْتُدْعِيَ شاهِدٌ آخَرُ وَقَرَّرَ أَنَّهُ رَأى دارني في فُنْدُقٍ بِإِحْدى المُدُنِ الَّتي كانَ يوجَدُ بِها حَوْضٌ لِبِناءِ السُّفُنِ وَمُعَسْكَرٌ حَرْبِيٌّ.

أَمّا السَّيِّدُ سيدني كارتون مُساعِدُ المُحامي، الَّذي بَدا هٰذِهِ اللَّحْظَةَ غَيْرَ مُبالٍ بِسَيْرِ القَضِيَّةِ، فَقَدْ كَتَبَ بَعْضَ الكَلِماتِ عَلى قُصاصَةٍ مِنَ الوَرَقِ وَناوَلَها لِلسَّيِّدِ سترايفر. وَبَعْدَ أَنْ قَرَأَ الوَرَقَةَ، قامَ بِمُناقَشَةِ الشّاهِدِ.

«هَلْ أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ تَمامًا بِأَنَّهُ كانَ المُتَّهَمَ؟»

«مُتَأَكِّدٌ تَمامًا!»

«هَلْ سَبَقَ أَنْ رَأَيْتَ أَحَدًا يُشْبِهُ المُتَّهَمَ مِنْ قَبْلُ؟»

«لا يُشْبِهُهُ إلى الحَدِّ الَّذي لا يَجْعَلُني أَعْرِفُهُ!»

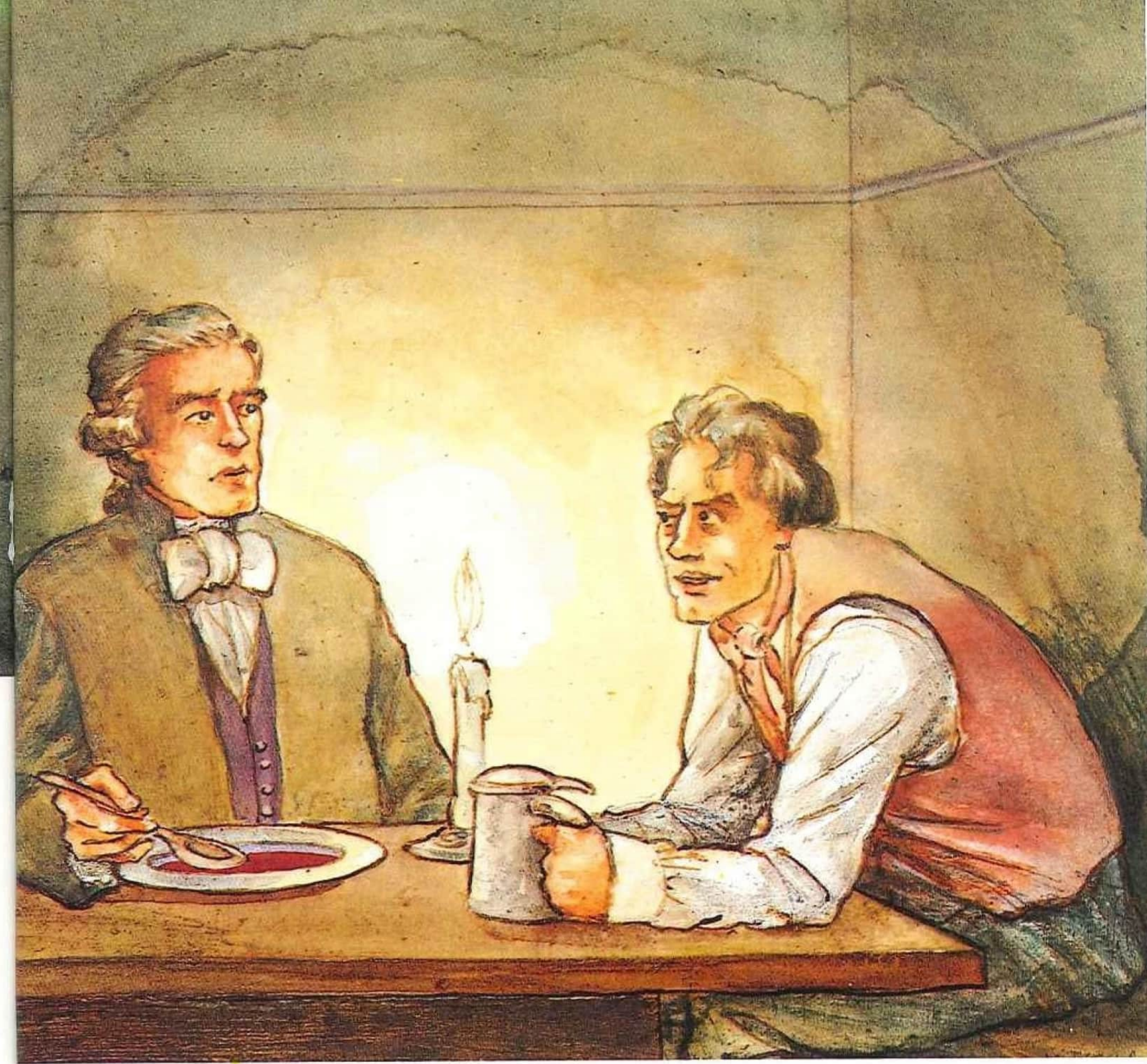
«أُنْظُرْ إلى ذٰلِكَ الرَّجُلِ، إلى صَديقي المُتَعَلِّمِ، هُناكَ.»

واصَلَ سترايڤر كلامَهُ وَهُوَ يُشيرُ إلى كارتون: «ما رَأْيُكَ في ذٰلِكَ؟ ألا يُشْبِهُ كُلٌّ مِنْهُما الآخَرَ؟» وَبِالرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ أَناقَتِهِ وَشَعْرِهِ المُشَعَّثِ، إلّا أَنَّ الجَميعَ دُهِشوا مِنْ مَدى الشَّبَهِ بَيْنَهُما. وَٱخْتَتَمَ سترايڤر كَلامَهُ قائِلًا: «لَوْ حَدَثَ وَوُجِدَ رَجُلٌ يُشْبِهُ المُتَّهَمَ إلى هٰذا الحَدِّ في المَحْكَمَةِ صُدْفَةً، فَأَعْتَقِدُ أَنَّكَ مِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ تَكونَ قَدْ رَأَيْتَ رَجُلًا آخَرَ بِالصُّدْفَةِ في ذٰلِكَ اليَوْمِ.»

وَلَمْ يُؤْخَذْ بِشَهادَةِ الشّاهِدِ، وَرُفِعَتِ الجَلْسَةُ، وَٱنْسَحَبَ القُضاةُ لِلْمُداوَلَةِ.

وَكانَ السَّيِّدُ كارتون عَلى وَعْيٍ كَبيرٍ بِما يَجْري في المَحْكَمَةِ أَكْثَرَ مِمّا بَدا عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ كانَ أَوَّلَ مَنْ لاحَظَ أَنَّ الآنِسَةَ لوسي لَمْ تَعُدْ تَحْتَمِلُ جَوَّ التَّوَتُّرِ المَوْجودِ داخِلَ قاعَةِ المَحْكَمَةِ؛ فَصَرَخَ قائِلًا: «أَيُّها الضّابِطُ! أُنْظُرْ إلى هٰذِهِ الفَتاةِ، ساعِدِ السَّيِّدَ في إخْراجِها بَعيدًا عَنِ القاعَةِ. ألا تَرى أَنَّها موشِكَةٌ عَلى الإغْماءِ؟» وَبَعْدَ ساعَةٍ وَنِصْفٍ ٱنْعَقَدَتْ هَيْئَةُ المَحْكَمَةِ، وَبِٱبْتِهاجٍ عَظيمٍ سُمِعَ الحُكْمُ: «غَيْرُ مُذْنِبٍ.» وَأَصْبَحَ تشارلز حُرًّا.





وَخارِجَ المَحْكَمَةِ كانَ في ٱنْتِظارِ تشارلز دارني مِنْ أَصْدِقائِهِ ، الدكتور مانيت وَالسَّيِّدُ لوري ، وَالسَّيِّدُ سترايفر وَكارتون. وَكانَ مِنَ الصَّعْبِ التَّعَرُّفُ عَلى الدكتور مانيت ، بَعْدَ مُضِيِّ خَمْسِ سَنَواتٍ عَلى خُروجِهِ مِنْ مِحْنَتِهِ الأَليمَةِ. فَقَدْ بَدا سَليمًا مُعافًى تَمامًا ، لٰكِنْ كانَتْ تَكْسُوهُ أَحْيانًا مَسْحَةٌ مِنَ اليَأْسِ وَالحُزْنِ ، وَلا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ سِوى لوسي فَقَطْ أَنْ يَطْرُدَ تِلْكَ الذِّكْرَياتِ القاتِمَةَ لِتَجْرِبَتِهِ الماضِيَةِ. وَقَدْ لاحَظَ ذٰلِكَ السَّيِّدُ لوري ، عِنْدَما رَأى الدكتور يُحَمْلِقُ إِلى دارني بِنَظْرَةٍ غَريبَةٍ كَسَتْ وَجْهَهُ. كانَتْ نَظْرَةً عابِسَةً مَليئَةً بِالكَراهِيَةِ وَعَدَمِ الثِّقَةِ وَيَشوبُها شَيْءٌ مِنَ الخَوْفِ.

وَعِنْدَما تَفَرَّقَ الجَميعُ ، ذَهَبَ دارني وَكارتون لِتَناوُلِ الطَّعامِ مَعًا.

وَبَدا مِنَ الواضِحِ - بِسَبَبِ التَّشابُهِ بَيْنَهُما بِشَكْلٍ كَبيرٍ ، وَلِأَنَّ كارتون كانَ عُنْصُرًا فَعّالًا في كَسْبِ قَضِيَّةِ دارني - أَنَّ الرَّجُلَيْنِ شَعَرا بِنَوْعٍ مِنَ الوُدِّ المُتَبادَلِ.

وَرَغْمَ أَنَّ دارني كانَ لا يَزالُ مُرْهَقًا ، وَمُضْطَرِبًا بَعْضَ الشَّيْءِ ، بِسَبَبِ مِحْنَتِهِ الأَخيرَةِ ، فَإِنَّهُ كانَ واعِيًا تَمامًا بِما هُوَ مَدينٌ بِهِ إِلى ذٰلِكَ الرَّفيقِ الجِلْفِ الَّذي كانَ يَجْلِسُ أَمامَهُ ، وَظَلَّ مُتَحَفِّظًا وَمُؤَدَّبًا.

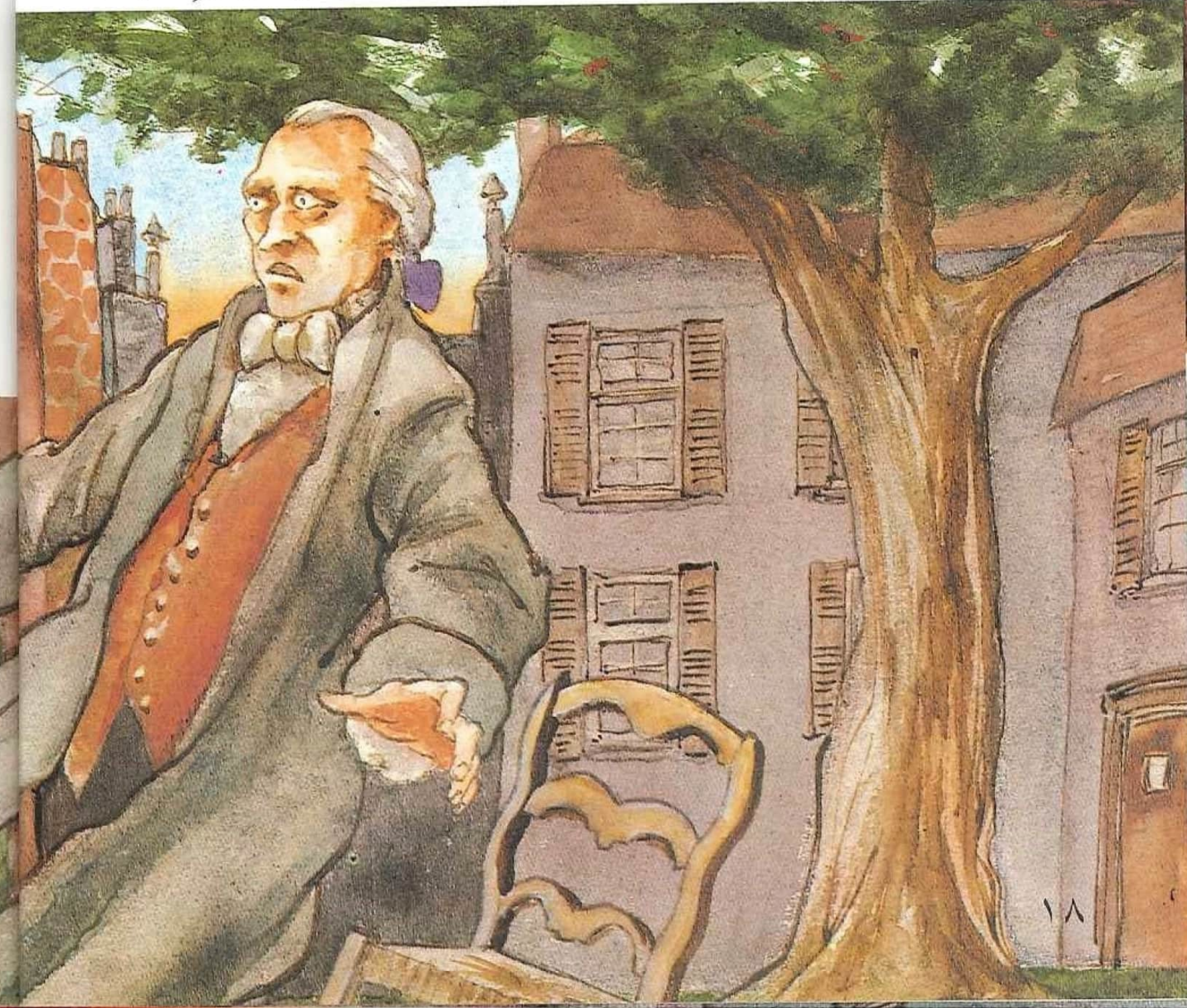
أَمّا كارتون ، فَقَدْ رَأى في دارني تِلْكَ الصِّفاتِ الَّتي رُبَّما كانَ يَتوقُ إِلَيْها لَوْ لَمْ يَسْمَحْ هُوَ نَفْسُهُ - لِعَدَمِ احْتِرامِهِ لِذاتِهِ - بِأَنْ يَنْجَرَّ إِلى تِلْكَ الحَياةِ الحِسِّيَّةِ الَّتي يَعيشُها. لَقَدِ ٱنْجَذَبَ إِلى لوسي مانيت ، لٰكِنَّ ٱهْتِمامَها بِدارني أَقْنَعَهُ بِأَنَّها لَنْ تَهْتَمَّ بِشَخْصٍ وَضيعٍ مِثْلِهِ. وَقَدْ جَعَلَهُ ذٰلِكَ يَرى في دارني مُنافِسًا لَهُ ، وَيَعْتَبِرُهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ شَخْصٍ غَيْرِ مَحْبوبٍ فَقَطْ بَلْ أَقْرَب إِلى أَنْ يَكونَ مَكْروهًا.

ٱنْتَهى دارني مِنْ تَناوُلِ الطَّعامِ وَغادَرَ المَكانَ ، فَراحَ كارتون يُواسي نَفْسَهُ بِتَناوُلِ شَرابٍ لِفَتْرَةٍ ثُمَّ سَقَطَ نائِمًا بِذِراعَيْهِ عَلى المِنْضَدَةِ وَٱنْسَدَلَ شَعْرُهُ عَلى يَدَيْهِ.

عِنْدَما ٱسْتَيْقَظَ فيما بَعْدُ ، ذَهَبَ لِمُساعَدَةِ سترايفر في إعْدادِ قَضايا اليَوْمِ التّالي ؛ لأَنَّهُ كانَ بِمَثابَةِ العَقْلِ المُدَبِّرِ الَّذي يَكْمُنُ وَراءَ نَجاحِ سترايفر في قَضاياهُ كَمُحامٍ أمامَ القَضاءِ العالي .

لَقَدْ كانَ سيدني كارتون يَتَمَتَّعُ بِالكَفاءَةِ وَالطّيبَةِ ، لٰكِنَّهُ لَمْ يَهْتَمَّ أَبَدًا بِالاِنْتِفاعِ مِنْ مَواهِبِهِ المُتَعَدِّدَةِ مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَتِهِ الخاصَّةِ .

بَعْدَ مُضِيِّ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ عَلى المُحاكَمَةِ تَوَجَّهَ السَّيِّدُ لوري لِلْعَشاءِ بِمَنْزِلِ الدكتور مانيت . وَلَمْ يَكُنِ الدّكتور مانيت أَوِ ٱبْنَتُهُ بِٱلْمَنْزِلِ عِنْدَ وُصولِهِ ، فَشَغَلَ الوَقْتَ بِٱلحَديثِ مَعَ الآنِسَةِ بروس مُديرَةِ أَعْمالِ البَيْتِ وَالَّتي تُكِنُّ الإخْلاصَ لِسَيِّدَتِها الشّابَّةِ . وَعَرَفَ مِنْها لوري ما يَتَعَرَّضُ لَهُ الدكتور مانيت مِنْ نَوْباتِ ٱكْتِئابٍ أَحْيانًا .



وَبَيْنَما كانَ يُحاوِلُ ٱسْتِطْلاعَ المَزيدِ مِنَ المَعْلوماتِ ، قَطَعَ حَديثَهُما وصولُ أَصْدِقائِهِ ، وَٱنْضَمَّ إِلَيْهِمْ – فيما بَعْدُ – دارني .

وَأَثْناءَ جُلوسِهِمْ في الحَديقَةِ بَعْدَ تَناوُلِ العَشاءِ وَهُمْ يَتَحَدَّثونَ ، حَدَثَ شَيْءٌ غَريبٌ . كانَ دارني يَحْكي لَهُمْ قِصَّةً سَمِعَها خِلالَ سَجْنِهِ في بُرْجِ لندن قَبْلَ مُحاكَمَتِهِ . قالَ إِنَّهُ أَثْناءَ إِجْراءِ بَعْضِ أَعْمالِ البِناءِ في السِّجْنِ ، فوجِئَ العُمّالُ بِكَلِمَةِ «احْفِرْ» مَكْتوبَةً بِطَريقَةٍ غائِرَةٍ عَلى جِدارِ إِحْدى الزِّنْزاناتِ . فَقاموا بِحَفْرِ الأَرْضِيَّةِ بِحِرْصٍ حَتّى وَجَدوا أَسْفَلَ أَحَدِ الأَحْجارِ رَمادَ بَعْضِ الأَوْراقِ وَبَقايا حَقيبَةٍ جِلْدِيَّةٍ . لٰكِنْ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أُتْلِفَ فَقَدْ ظَلَّ ما كَتَبَهُ هٰذا السَّجينُ المَجْهولُ سِرًّا غامِضًا .

وَما إِنْ سَمِعَ الدكتور مانيت هٰذِهِ الكَلِماتِ حَتّى قَفَزَ واقِفًا وَيَداهُ فَوْقَ رَأْسِهِ . أَفْزَعَتْ حَرَكَتُهُ المُفاجِئَةُ كُلَّ الحاضِرينَ وَصَرَخَتْ لوسي قائِلَةً : «أَبي ! هَلْ تَشْعُرُ بِأَيِّ أَلَمٍ ؟»

وَٱسْتَعادَ الدكتور مانيت هُدوءَهُ السّابِقَ بِسُرْعَةٍ ، إِلّا أَنَّ لوري ، تَذَكَّرَ أَنَّهُ لَمَحَ لِبُرْهَةٍ قَصيرَةٍ نَفْسَ التَّعْبيرِ الغَريبِ عَلى وَجْهِ الدكتور ، المَليءِ بِالشَّكِّ وَالخَوْفِ اللَّذَيْنِ لاحَظَهُما عِنْدَما كانَ يُحَمْلِقُ إِلى وَجْهِ دارني يَوْمَ مُحاكَمَتِهِ .



فِي مَساءِ ذٰلِكَ اليَوْمِ هَبَّتْ عاصِفَةٌ رَعْدِيَّةٌ مُخيفَةٌ ، أَثْناءَ زِيارَةِ سيدني كارتون لَهُمْ ، وَٱرْتَفَعَتْ أَصْواتُ خُطُواتِ المارَّةِ يُهَرْوِلونَ لِلْبَحْثِ عَنْ مَأْوًى يَخْتَبِئونَ فيهِ.

قالَتْ لوسي : «أَنا أَتَخَيَّلُ أَحْيانًا أَنَّها خُطُواتُ أُناسٍ قادِمينَ لِيَدْخُلوا حَياتَنا.»

قالَ كارتون : «إِذَنْ سَيَأْتي أُناسٌ كَثيرونَ. وَلَوْ أَتَوْا فَلَنْ أَخافَهُمْ.»

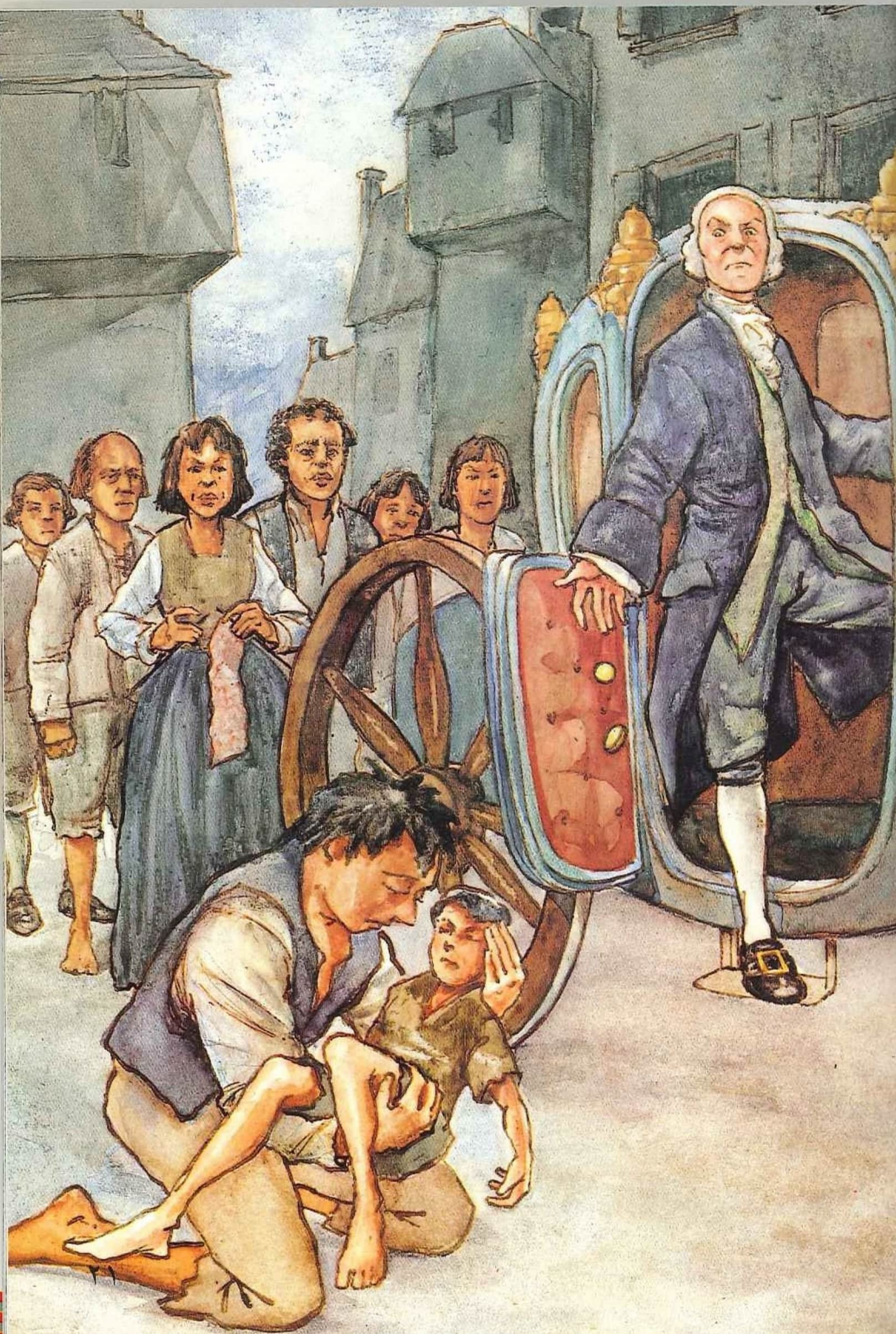
* * *

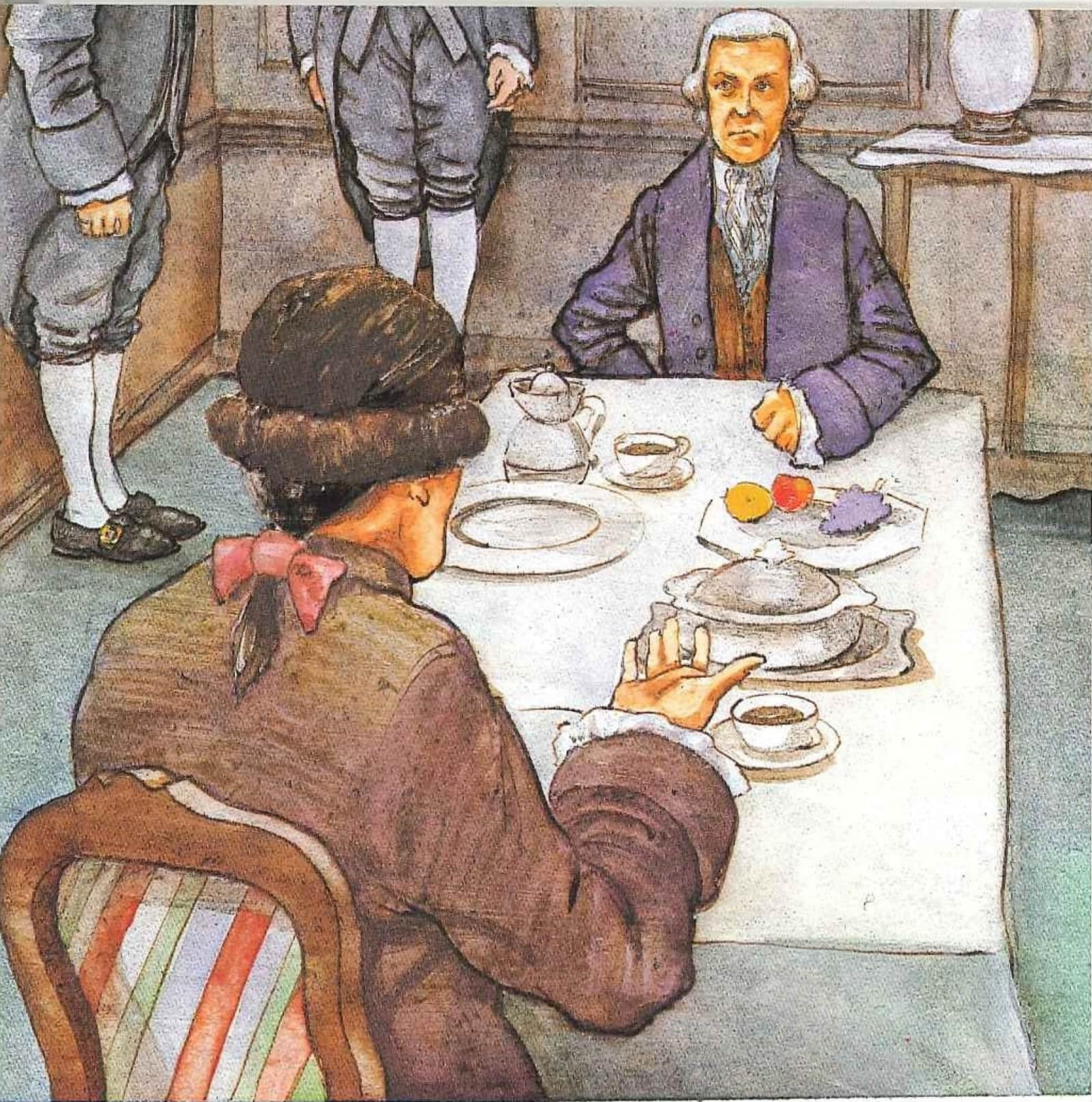
فِي هٰذِهِ الأَثْناءِ ، وَفِي القَصْرِ المَلَكِيِّ الفَرَنْسِيِّ عَلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ القَنالِ ، كانَ الماركيزُ إِڤْريموند في حالَةٍ مِزاجِيَّةٍ سَيِّئَةٍ. فَالمَلِكُ لَمْ يَكْتَرِثْ بِهِ ، وَلَمْ يَتَحَدَّثْ إِلَيْهِ سِوى القَليلِ مِنَ الحاضِرينَ ، فَأَدْرَكَ حينَئِذٍ أَنَّهُ أَصْبَحَ مِنْ سَقَطِ المَتاعِ.

تَرَكَ الماركيزُ القَصْرَ وَٱنْدَفَعَ بِعَرَبَتِهِ بِسُرْعَةٍ خِلالَ طُرُقاتِ المَدينَةِ. وَأَسْعَدَهُ أَنْ يَرى عامَّةَ الشَّعْبِ يُهَرْوِلونَ أَمامَ خُيولِ عَرَبَتِهِ خَشْيَةَ أَن تَدْهَسَهُمْ سَنابِكُ الخَيْلِ.

وَفَجْأَةً تَوَقَّفَتِ العَرَبَةُ. فَقَدْ دَهَسَتْ إِحْدى عَجَلاتِها في ناصِيَةِ أَحَدِ الشَّوارِعِ طِفْلًا صَغيرًا فَقَتَلَتْهُ في الحالِ. وَحادِثٌ تافِهٌ مِثْلُ هٰذا لَمْ يَشْغَلْ بالَ الماركيز كَثيرًا ، فَأَلْقى بِبِضْعِ قِطَعِ عُمْلَةٍ ذَهَبِيَّةٍ عَلى أَرْضِ الشّارِعِ كَتَعْويضٍ. وَتَهَيَّأَ لِلسَّيْرِ ؛ فَقَدْ كانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَجْرُؤُ عَلى إيذائِهِ ، لِكَوْنِهِ واحِدًا مِنْ أَبْناءِ الأُسَرِ النَّبيلَةِ في فَرَنسا. وَحَدَثَ أَنْ شاهَدَ هٰذا الحادِثَ الفَظيعَ ديفارج وَزَوْجَتُهُ تيريز ، الَّتي كانَتْ تَقِفُ عِنْدَ حانَةِ زَوْجِها صامِتَةً كَعادَتِها ، وَتَشْتَغِلُ بِالإِبْرَةِ.

وَبَيْنَما كانَتِ العَرَبَةُ موشِكَةً عَلى السَّيْرِ ، أَصابَتِ الماركيزَ الدَّهْشَةُ حينَ رَأى إِحْدى القِطَعِ الذَّهَبِيَّةِ تَرْتَدُّ إِلَيْهِ عَبْرَ نافِذَةِ العَرَبَةِ ، فَأَمَرَ بِإيقافِ العَرَبَةِ عَلى الفَوْرِ ، إِلّا أَنَّهُ لَمْ يُفْلِحْ في ٱكْتِشافِ الفاعِلِ بَيْنَ الحَشْدِ مِنَ النّاسِ الَّذينَ تَعْتَمِلُ في صُدورِهِمْ دَفَقاتُ غَيْظٍ مَكْبوتَةٌ. إِخْتَفى ديفارج ، وَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ مِنَ النّاسِ الواقِفينَ عَلى أَنْ يَنْظُرَ إِلى الماركيز مُباشَرَةً في عَيْنَيْهِ سِوى تيريز.





وَأَخيرًا تَحرَّكَتِ العَرَبَةُ ، وَلَمْ يَعُدِ الماركيزُ يُعيرُ ٱهْتِمامًا يُذْكَرُ ، فيما عَدا ما بَدا عَلَيْهِ مِنْ أَماراتِ الاِشْمِئْزازِ لِما أَصابَ سُلوكَ الدَّهْماءِ مِنَ ٱنْحِطاطٍ لَمْ يَتَعَوَّدْهُ مِنْهُمْ حينَ كانَ في شَبابِهِ.

لَمْ يَكَدْ يَصِلُ إِلى قَصْرِهِ الرِّيفِيِّ في وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ ذٰلِكَ اليَوْمِ ، وَتُفْتَحُ البَوّابَةُ الكَبيرَةُ لَهُ ، حَتّى ٱسْتَفْسَرَ عَنْ وُصولِ ٱبْنِ أَخيهِ الَّذي كانَ مَدْعُوًّا لِلْعَشاءِ قائِلًا : «السَّيِّدُ تشارلز ، الَّذي أَنْتَظِرُ حُضورَهُ.. هَلْ وَصَلَ مِن إِنْجِلْترا؟» وَجاءَتِ

الإجابَةُ: «لَمْ يَصِلْ بَعْدُ... يا سَيِّدي.»

وَصَلَ ٱبْنُ أَخي الماركيز، الَّذي ٱجْتازَ إنْجِلْترا تَحْتَ ٱسْمِ تشارلز دارني، مُباشَرَةً مِنْ لندن بَعْدَ أَنْ تناوَلَ الماركيزُ عَشاءَهُ بِمُفْرَدِهِ.

وَظَلَّ الرَّجُلانِ في وُجودِ الخَدَمِ يَتبادَلانِ التَّحِيَّةَ وَالحَديثَ بِشَكْلٍ رَتيبٍ. وَما إنْ أَصْبَحا وَحْدَهُما، حَتّى دَخَلَ تشارلز في المَوْضوعِ مُباشَرَةً. وَٱتَّهَمَ عَمَّهُ، بِشَيْءٍ مِنَ العُنْفِ المَلْحوظِ، بِأَنَّ ما تَعَرَّضَ لَهُ مِنْ خَطَرٍ مُحْدِقٍ عَلى أَيْدي السُّلُطاتِ القَضائِيَّةِ الإنْجليزِيَّةِ كانَ نَتيجَةً لِتَصرُّفاتِ عَمِّهِ. بَلْ إنَّهُ ذَهَبَ إلى أَبْعَدِ مِنْ ذٰلِكَ لِيُعْلِنَ أَنَّهُ يَعْتَبِرُ نَفْسَهُ مَحْظوظًا لِأَنَّ عَمَّهُ لَمْ يَعُدْ مِمَّنْ يُصْغي إلَيْهِمِ المَلِكُ، وَإلّا لَكانَ مَكانُهُ في هٰذِهِ اللَّحْظَةِ إحْدى زِنْزاناتِ السِّجْنِ في فَرَنسا.

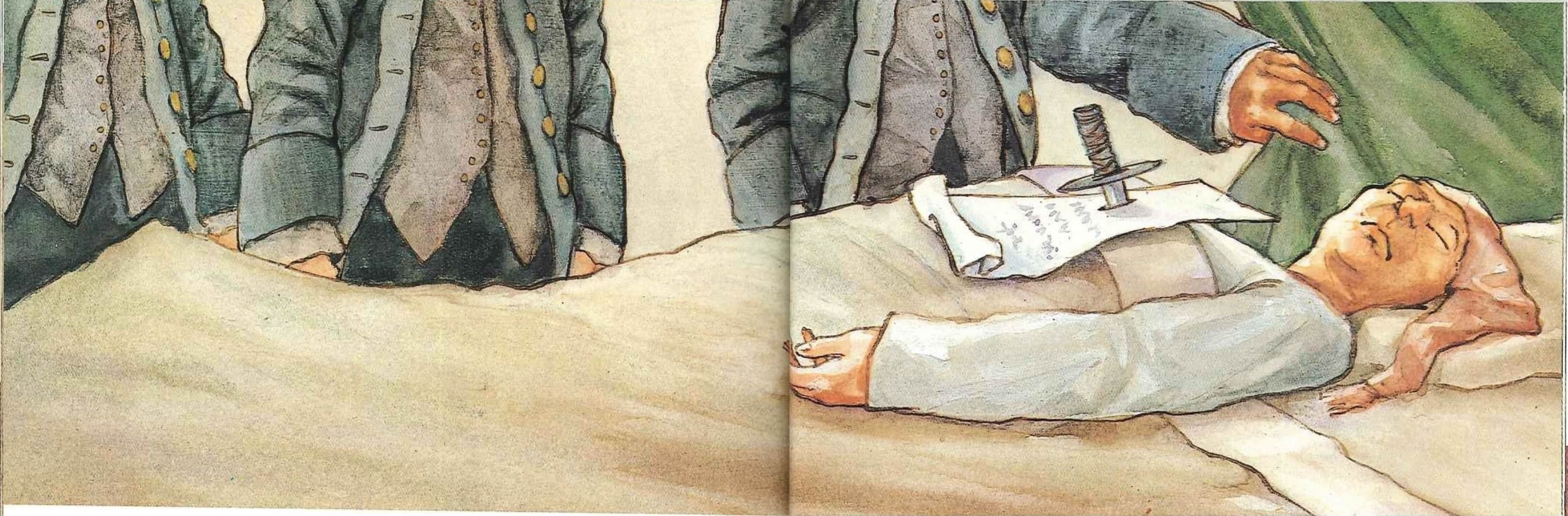
وَلَمْ يُنْكِرِ الماركيز حَقيقَةَ هٰذِهِ الاتِّهاماتِ، وَٱعْتَرَفَ بِبَساطَةٍ بِأَنَّهُ لَنْ يَتَوَرَّعَ عَنْ فِعْلِ أَيِّ شَيْءٍ دِفاعًا عَنْ شَرَفِ ٱسْمِ العائِلَةِ. وَحاوَلَ دارني أَنْ يُقْنِعَ عَمَّهُ بِأَنْ يُدْرِكَ مَشاعِرَ النّاسِ تِجاهَ عائِلَةِ إڤريموند.

وَقالَ في أَسًى: «لَقَدْ حاوَلْنا تَأْكيدَ مَرْكَزِنا، سَواءً في الماضي أَوِ الحاضِرِ، لِدَرَجَةِ أَنَّني أَشْعُرُ الآنَ بِأَنَّ ٱسْمَ عائِلَتِنا أَكْثَرُ الأَسْماءِ بُغْضًا في نُفوسِ النّاسِ في فرنسا كُلِّها.»

عاجَلَهُ عَمُّهُ بِقَوْلِهِ: «أَتَمَنّى ذٰلِكَ.. فَبُغْضُ عامَّةِ الشَّعْبِ للأرِسْتُقْراطِيّينَ هُوَ دَليلُ وَلائِهِمِ ٱلجَبْرِيِّ.»

واصَلَ دارني حَديثَهُ وَعَبَّرَ عَنْ نِيَّتِهِ في التَّخَلّي عَنْ كُلِّ حُقوقِهِ لِعائِلَةِ إڤريموند عِنْدَ وَفاةِ عَمِّهِ، وَأَعْلَنَ أَنَّهُ يُفَضِّلُ العَوْدَةَ إلى إنْجِلْترا، لِيَكْسِبَ قوتَهُ مِنْ عَرَقِ جَبينِهِ.

وَٱنْفَرَجَتْ أَساريرُ الماركيزِ عِنْدَما ذَكَرَ دارني إنْجِلْترا، بِاعْتِبارِها مَلْجَأً لِكَثيرٍ مِنَ الفَرَنْسِيّينَ، وَقالَ مُبْتَسِمًا: «بِمَنْ فيهِمْ أَحَدُ الأَطِبّاءِ وَٱبْنَتُهُ.»



في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ٱنْتَهى لِقاءُ دارني مَعَ عَمِّهِ بِشَكْلٍ وُدِّيٍّ ، لٰكِنْ دونَ أَنْ يَصِلا إلى ٱتِّفاقٍ بَيْنَهُما . وَلَمْ يَتَكَرَّرْ هٰذا اللِّقاءُ أَبَدًا ، فَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي وُجِدَ ماركيز إڤريموند مَطْعونًا في فِراشِهِ بِخَنْجَرٍ وَقَدْ فارَقَ الحَياةَ ، وَفي طَرَفِ الخَنْجَرِ النّافِذِ إلى القَلْبِ قُصاصَةُ وَرَقٍ فيها رِسالَةٌ تَقولُ : «عَجِّلوا بِهِ إلى قَبْرِهِ ! . هٰذِهِ رِسالَةٌ مِنْ جاك . »

وَلَمْ يُثِرِ التَّوْقيعُ «جاك» أَهَمِّيَّةً في بادِئِ الأَمْرِ ، لٰكِنْ نَظَرًا لِتَحَوُّلِ السَّخَطِ العامِّ إلى تَمَرُّدٍ عَلَنِيٍّ ، فَقَدْ بَدَأَ الجَميعُ يَشْعُرونَ بِالخَوْفِ ، بِٱعْتِبارِ أَنَّ ذٰلِكَ تَصْميمٌ مَقْصودٌ مِنْ قِبَلِ هٰؤُلاءِ الأَفْرادِ الَّذينَ يَنْتَمونَ إلى أَشْرَسِ التَّنْظيماتِ الثَّوْرِيَّةِ الَّتي لا تَرْحَمُ .

* * *

وَقَعَ ثَلاثَةُ رِجالٍ في غَرامِ لوسي ، وَلِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ لَهُ طَريقَتُهُ الخاصَّةُ في التَّعْبيرِ عَنْ ذٰلِكَ ، فَكانَتْ حِكايَتُهُمْ كالتّالي :

بَعْدَ مَقْتَلِ عَمِّ تشارلز دارني ، سَرْعانَ ما عادَ تشارلز إلى إنْجِلْترا حَيْثُ عَمِلَ مُدَرِّسًا ناجِحًا لِلُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ . وَذاتَ يَوْمٍ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكْتُمَ حُبَّهُ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ، وَلٰكِنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُزْعِجَ لوسي بِمُصارَحَتِها بِما يُكِنُّهُ لَها مِنْ مَشاعِرَ ، وَفَضَّلَ أَنْ يُفاتِحَ والِدَها في الأَمْرِ .

وَرَحَّبَ الدكتور مانيت بِزِيارَةِ تشارلز دارني ، لٰكِنَّهُ عِنْدَما سَمِعَ ما أَفْصَحَ بِهِ دارني عَنْ حُبِّهِ الصّادِقِ ، وَتَخَيَّلَ فِكْرَةَ زَواجِ ٱبْنَتِهِ مِنْ هٰذا الشّابِّ ، بَدا عَلَيْهِ الِانْزِعاجُ . وَالأَدْهى مِنْ ذٰلِكَ عِنْدَما أَخْبَرَهُ دارني أَنَّهُ يَعيشُ في إنْجِلْترا تَحْتَ ٱسْمٍ مُسْتَعارٍ ، وَعَبَّرَ عَنْ رَغْبَتِهِ بِأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَكْشِفَ لَهُ عَنْ شَخْصِيَّتِهِ الحَقيقِيَّةِ ، رَفَضَ الدكتور ذٰلِكَ بِشِدَّةٍ وَأَصْبَحَ في غايَةِ الضّيقِ .

غادَرَ تشارلز المَنْزِلَ على وَعْدٍ مِنَ الدّكتور مانيت بِألّا يَذْكُرَهُ بِسوءٍ أمامَ لوسي إذا تَحَدَّثَتْ هِيَ عَنْهُ بِنَوْعٍ مِنَ التَّعاطُفِ، وَفي المُقابِلِ وَعَدَهُ دارني بِألّا يَذْكُرَ ٱسْمَهُ الحَقيقِيَّ على الإطْلاقِ وَلا عائِلَتَهُ حَتّى يَوْمِ الزِّفافِ. أثَّرَ هٰذا اللِّقاءُ تَأْثيرًا عَميقًا في الدكتور مانيت، حَتّى إنَّ لوسي عِنْدَ عَوْدَتِها مِنْ جَوْلَتِها مَعَ الآنِسَةِ بروس، وَجَدَتْهُ مُنْحَنِيًا على مِنْضَدَةِ صُنْعِ الأَحْذِيَةِ، كَما ٱعْتادَ أَنْ يَفْعَلَ أَثْناءَ وُجودِهِ في السِّجْنِ وَإقامَتِهِ عِنْدَ ديفارج.



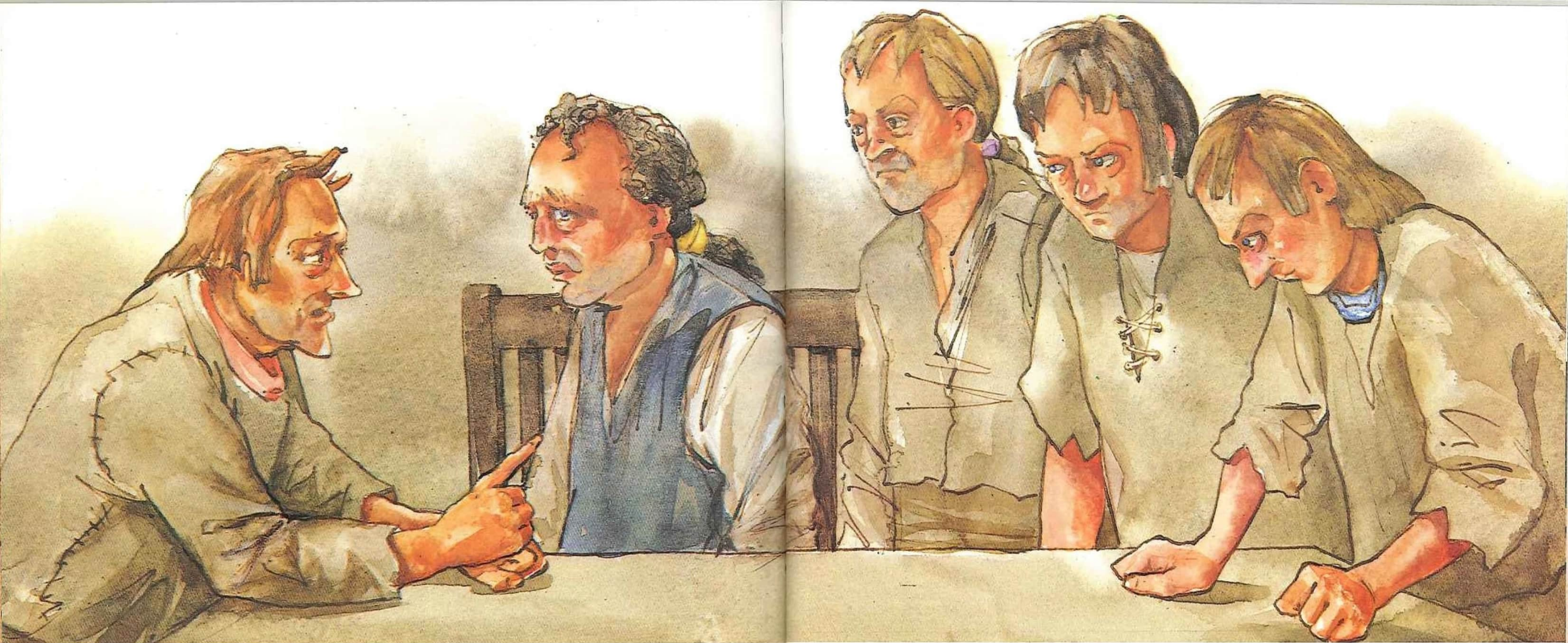
كانَتِ المَشاعِرُ المُتَداخِلَةُ وَالضّيقُ أكْثَرَ مِمّا يَحْتَمِلُ، فَأَدَّتْ إلى مَحْوِ كُلِّ ذِكْرَياتِهِ مِنْ ذِهْنِهِ مُنْذُ أَنْ خَرَجَ مِنَ السِّجْنِ؛ فَانْكَبَّ في يَأْسٍ، عَلى المِهْنَةِ الَّتي تَعَلَّمَها وَالَّتي أعْطَتْ لِوجودِهِ مَعْنًى وَشُعورًا بِالأمانِ، وأَمَلًا أيْضًا، أثْناءَ تِلْكَ الأيّامِ الغابِرَةِ الرَّهيبَةِ الطَّويلَةِ الَّتي قَضاها في السِّجْنِ، ألا وَهِيَ صُنْعُ الأحْذِيَةِ.

وَاسْتَطاعَتْ لوسي بِكَثيرٍ مِنَ المُثابَرَةِ وَبِصُعوبَةٍ بالِغَةٍ أَنْ تُعيدَ إلى والِدِها طُمَأْنينَتَهُ وَإيمانَهُ وَثِقَتَهُ في الحَياةِ، الَّتي تَبْدو غَريبَةً بِالنِّسْبَةِ لَهُ، وَيَنْعَمُ فيها بِالحُرِّيَّةِ الحَقيقِيَّةِ.

أمّا السَّيِّدُ سترايڤر فَقَدْ بَدَأَ القَلَقُ يُساوِرُهُ أيْضًا مِنْ حَياةِ العُزوبَةِ، فَقَرَّرَ أنْ يَطْلُبَ لوسي لِلزَّواجِ. وَلَمْ يَكُنْ يَتَصَوَّرُ وَلَوْ لِبُرْهَةٍ – لِغُرورِهِ الشَّديدِ – إلّا أَنْ يُقابَلَ طَلَبُهُ بِالمُوافَقَةِ. وَلِحُسْنِ الحَظِّ، فَإِنَّهُ أَفْضى بِرَغْبَتِهِ إلى السَّيِّدِ جارڤيس لوري، الَّذي كانَ أَبْعَدَ نَظَرًا مِنْ سترايڤر وَأكْثَرَ خِبْرَةً بِما يَدورُ في عُقولِ البَشَرِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أنْ يَتْرُكَ لَهُ مُهِمَّةَ إبْلاغِ الدكتور مانيت، وَيَعْرِفَ مِنْهُ رَدَّهُ على طَلَبِهِ، الَّذي كانَ كَما يَتَوَقَّعُ عَدَمَ المُوافَقَةِ عَلَيْهِ. واسْتَمَعَ سترايڤر إلى تِلْكَ الأَنْباءِ دونَ اهْتِمامٍ واضِحٍ، وَكُلُّهُ ثِقَةٌ بِأَنَّ عائِلَةَ مانيت بِرَفْضِها عَرْضَهُ خَسِرَتْ أكْثَرَ مِمّا خَسِرَ هُوَ.

أَمّا الثّالِثُ فَهُوَ سيدني كارتون، وكانَ الوَحيدَ الَّذي عَبَّرَ عَنْ مَشاعِرِهِ للوسي بِوُضوحٍ. فَقَدْ كانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ نَتيجَةً لِضَياعِ شَبابِهِ وَحَياةِ المَلَذّاتِ الَّتي كانَ يَحْياها، لَنْ يَحْظى بِمُوافَقَةِ لوسي. لِذٰلِكَ، كانَتْ أُمْنِيَّتُهُ أَنْ تُدْرِكَ لوسي أَنَّ وُجودَها الهادِئَ وَالمُطْمَئِنَ إلى جِوارِ والِدِها جَعَلَهُ يَرْغَبُ في تَغْييرِ نَمَطِ حَياتِهِ وَأَنْ يُفْضِيَ إلَيْها قائِلًا: «هُناكَ إنْسانٌ يَوَدُّ أَنْ يُضَحِّيَ بِحَياتِهِ مِنْ أَجْلِ بَقاءِ إنْسانٍ آخَرَ تُحِبّينَهُ إلى جِوارِكِ.» وَتَأَثَّرَ قَلْبُ لوسي الحَنونُ بِعُمْقٍ لِشابٍّ يُحِبُّ بِلا أَمَلٍ.

* * *



أَمّا في فَرنسا فَقَدْ تَمَّ التَّوَصُّلُ إلى قاتِلِ ماركيز إڤريموند وَهُوَ صَديقٌ لإرنست ديفارج. وأُلْقِيَ القَبْضُ عَلَيْهِ بَعْدَ مُرورِ عامٍ على جَريمَةِ القَتْلِ، وَبَرَّرَ ٱرْتِكابَ جَريمَتِهِ بِمَقْتَلِ ٱبْنِهِ تَحْتَ عَجَلاتِ عَرَبَةِ الماركيز. إلّا أَنَّ هٰذا المُبَرِّرَ لَمْ يُعْتَبَرْ في تِلْكَ الفَتْرَةِ مِنَ الظُّروفِ المُخَفِّفَةِ، وَهٰكَذا تَمَّ إعْدامُهُ على النّافورَةِ المَوْجودَةِ في القَرْيَةِ بِالْقُرْبِ مِنْ قَصْرِ الماركيز، وَتُرِكَتْ جُثَّتُهُ لِتَتَعَفَّنَ عِبْرَةً لِلآخَرينَ.

وكانَ الشّاهِدُ الوَحيدُ لِكُلِّ هٰذِهِ الأَحْداثِ عامِلَ إصْلاحِ الطُّرُقِ، الَّذي أَحْضَرَهُ إرنست ديفارج مَعَهُ إلى باريس لِيَرْوِيَ كُلَّ ما شاهَدَهُ لِأَصْدِقائِهِ الثَّلاثَةِ: جاك الأَوَّلُ، جاك الثّاني، وجاك الثّالِثُ، وَعِنْدَما غادَرَهُمْ عامِلُ إصْلاحِ الطُّرُقِ كانَ جاك الأَوَّلُ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ.

– «ما رَأْيُكَ يا جاك؟ هَلْ نَضَعُهُمْ في القائِمَةِ؟»

أَجابَ ديفارج: «قائِمَةُ الإبادَةِ – نَعَمْ.»

سَأَلَ الأَوَّلُ: «القَصْرُ وَكُلُّ عائِلَةِ إڤريموند؟»

أَجابَ ديفارج: «القَصْرُ وَكُلُّ عائِلَةِ إڤريموند.»

قالَ جاك الأَوَّلُ: «هَلْ أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ أَنَّ القائِمَةَ في مَأْمَنٍ تَماماً؟ فَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّها كُتِبَتْ بِكِتابَةٍ سِرِّيَّةٍ، وَلا يَسْتَطيعُ قِراءَتَها غَيْرُنا. لٰكِنْ ما العَمَلُ إذا قُبِضَ عَلَيْنا؟ هَلْ تَسْتَطيعُ زَوْجَتُكَ أَنْ تَقْرَأَ الرَّمْزَ الَّذي ٱشْتَغَلَتْهُ بِالإبْرَةِ حينَما يَأْزَفُ الوَقْتُ؟»

أَجابَ ديفارج في ثِقَةٍ: «لا تَخَفْ، يا جاك، فَهِيَ عِنْدَما تُطَرِّزُ أَيَّ ٱسْمٍ بِالإبْرَةِ في قائِمَتِها، فَإِنَّها تَحْفَظُهُ في ذاكِرَتِها. لَنْ يُنْسى أَيُّ ٱسْمٍ إطْلاقاً.»

وَغَمْغَمَ الجَميعُ بِكَلِماتِ الإعْجابِ لِما تَتَّصِفُ بِهِ هٰذِهِ المَرْأةُ الطَّيِّبَةُ مِنْ عَزْمٍ وَبَسالَةٍ، وتَرَكوا الاجْتِماعَ فُرادى لِئَلّا يَلْفِتوا نَظَرَ جَواسيسِ الحُكومَةِ.

وَبَعْدَ عِدَّةِ أيّامٍ أَخْبَرَ إرنست ديفارج زَوْجَتَهُ أَنَّهُ عَلِمَ مِنْ مَصادِرِهِ الخاصَّةِ أَنَّ الحُكومَةَ عَيَّنَتْ جاسوسًا جَديدًا لِحَيِّهِمْ. وَأَخْبَرَها بِٱسْمِ الجاسوسِ «جون بارساد» وَهُوَ إنْجليزِيٌّ، وَأَعْطاها وَصْفًا شامِلًا لِمَلامِحِهِ. وَعَلى الفَوْرِ دَوَّنَتِ السَّيِّدَةُ ديفارج كُلَّ هٰذِهِ التَّفاصيلِ في نَسيجِها وَأضافَتِ ٱسْمَهُ إلى قائِمَةِ المَطْلوبِ إبادَتُهُمْ.

بَعْدَ فَتْرَةٍ وَجيزَةٍ، ظَهَرَ المَدْعُوُّ جون بارساد في حانَةِ ديفارج في مُحاوَلَةٍ لِلْحُصولِ عَلى دَليلِ إدانَةٍ يُقَدِّمُهُ لِرُؤَسائِهِ، إلّا أَنَّ ديفارج وَزَوْجَتَهُ كانا عَلى دِرايَةٍ بِأحابيلِ أَمْثالِ هٰؤُلاءِ النّاسِ. وَلَمْ يَغْفَلْ إرنست ديفارج عَنْ مُراقَبَتِهِ إلّا لِلَحْظَةٍ، عِنْدَما أُخْبِرَ أَنَّ ماركيز إڤريموند الجَديدَ يَعيشُ في إنْجِلْترا تَحْتَ ٱسْمٍ مُسْتَعارٍ هُوَ «تشارلز دارني». وَرَغْمَ أَنَّ ديفارج حاوَلَ التَّظاهُرَ بِالهُدوءِ التّامِّ إلّا أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْ يَدَهُ مِنَ الارْتِعاشِ لِلَحْظَةٍ وَهُوَ يُشْعِلُ غَلْيونَهُ، وَلا بُدَّ أَنْ يَكونَ جون بارساد قَدْ لاحَظَ عَلاماتِ ٱضْطِرابِ ديفارج الَّتي نَدَّتْ عَنْهُ.

* * *

قَضَتْ لوسي مانيت لَيْلَتَها الأخيرَةَ قَبْلَ الزِّفافِ مَعَ والِدِها في بَيْتِهِما المُتَواضِعِ بِلندن، الَّذي كانَ رَغْمَ صِغَرِهِ وَبَساطَتِهِ يَبْدو مُريحًا. لَقَدِ ٱجْتَهَدَتْ خِلالَ السَّنَواتِ القَليلَةِ الماضِيَةِ أَنْ تَمْحُوَ مِنْ ذاكِرَةِ أَبيها تِلْكَ الذِّكْرَياتِ المَريرَةَ الَّتي تَرَسَّبَتْ مِنَ الماضي مُحاوِلَةً أَنْ تُهَيِّئَ لَهُ حَياةً جَديدَةً.

كانَ ذِهْنُها مَشْغولًا في هٰذِهِ اللَّحْظَةِ خَشْيَةَ أَنْ يُسَبِّبَ زَواجُها أَيَّ إحْساسٍ بِالخَسارَةِ بِٱلنِّسْبَةِ لِوالِدِها، الَّذي كانَتْ تُكِنُّ لَهُ حُبًّا عَظيمًا، وَكَمْ شَعَرَتْ بِالسَّعادَةِ وَالبَهْجَةِ حينَ أَخْبَرَها والِدُها بِأَنَّ زَواجَها بِمِثْلِ هٰذا الرَّجُلِ قَدْ حَقَّقَ لَهُ كُلَّ ما كانَ



يَتَمَنّاهُ لَها ، وَأَسْعَدَها أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَأَراحَها بِشَكْلٍ لا يوصَفُ عِنْدَما بَدَأَ يَحْكي لَها بِرَباطَةِ جَأْشٍ عَمّا شَعَرَ بِهِ أَثْناءَ وُجودِهِ في السِّجْنِ مِنْ أَسًى إِزاءَ زَوْجَتِهِ الحَزينَةِ وطِفْلِهِما الَّذي لَمْ يَكُنْ قَدْ وُلِدَ بَعْدُ . فَلَقَدْ كانَتْ هٰذِهِ هِيَ المَرَّةَ الأولى مُنْذُ أُطْلِقَ سَراحُهُ الَّتي يُشيرُ فيها إِلى تِلْكَ الأَيّامِ الرَّهيبَةِ لِمِحْنَتِهِ الطَّويلَةِ .

كانَ حَفْلُ الزِّفافِ الَّذي تَمَّ في اليَوْمِ التّالي هادِئًا جِدًّا . كانَ السَّيِّدُ لوري شاهِدَ الزَّواجِ ، وَكانَتِ الآنِسَةُ بروس هِيَ الوَصيفَةَ الوَحيدَةَ لِلْعَروسِ . وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ ضُيوفٌ آخَرونَ . وَٱمْتَلأَتْ عَيْنا السَّيِّدِ لوري بِالدُّموعِ عِنْدَما تَذَكَّرَ إِحْضارَهُ لوسي مِنْ فَرنسا وَهِيَ إِذْ ذاكَ طِفْلَةٌ في المَهْدِ ، أَمّا الآنِسَةُ بروس فَقَدْ بَكَتْ هِيَ الأُخْرى لِأَنَّها سَتَفْتَقِدُ مَنْ قامَتْ بِتَرْبِيَتِها وَسَيِّدَتَها أَيْضًا .

كانَ كُلُّ شَيْءٍ يَبْدو جَميلًا حَتّى ظَهَرَ الدّكتور مانيت بِصُحْبَةِ العَريسِ تشارلز دارني . وَكانَ واضِحًا لِلسَّيِّدِ لوري أَنَّ هُناكَ شَيْئًا ما قَدْ حَدَثَ تَسَبَّبَ فيما كانَ يَبْدو عَلى الدكتور مانيت مِنِ ٱنْزِعاجٍ ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ أَحْجَمَ تَمامًا عَنِ ٱلإِفْصاحِ لِأَيِّ أَحَدٍ مِنَ الحاضِرينَ عَنِ السَّبَبِ في ذٰلِكَ . وَحانَتِ اللَّحْظَةُ الَّتي سَتَرْحَلُ فيها لوسي مَعَ زَوْجِها في رِحْلَةِ شَهْرِ عَسَلٍ قَصيرَةٍ ، عَلى أَنْ يَلْحَقَ بِهِما والِدُها لِقَضاءِ بَقِيَّةِ الإِجازَةِ مَعَهُما .

وَأَخيرًا قالَ الدكتور وَهُوَ يُخَلِّصُ نَفْسَهُ بِلُطْفٍ مِنْ بَيْنِ ذِراعَيِ ٱبْنَتِهِ : «خُذْ عَروسَكَ ، يا تشارلز ، فَهِيَ لَكَ . »

وَما هِيَ إِلّا لَحَظاتٌ حَتّى رَآها تُلَوِّحُ لَهُ مِنْ نافِذَةِ العَرَبَةِ وَتَرْحَلُ .

تَوَجَّهَ السَّيِّدُ لوري إِلى بَنْكِ تيلسون لِٱرْتِباطِهِ بِمَوْعِدٍ هُناكَ ، وَعِنْدَما عادَ إِلى بَيْتِ الدكتور مانيت كانَ كُلُّ شَيْءٍ هادِئًا ، حَتّى سَمِعَ فَجْأَةً صَوْتَ دَقٍّ عالٍ ، وَظَهَرَتِ الآنِسَةُ بروس وَعَلى وَجْهِها عَلاماتُ الفَزَعِ .



لَقَدْ عادَ الدكتور مانيت إلى أُسْلوبِ حَياتِهِ السّابِقِ وَجَلَسَ مُسْتَغْرِقًا يَصْنَعُ الأَحْذِيَةَ أمامَ مِنْضَدَتِهِ القَديمَةِ. وَلِمُدَّةِ تِسْعَةِ أيّامٍ ظَلَّ السَّيِّدُ لوري وَالآنِسَةُ بروس يُعانِيانِ كَرْبًا عَظيمًا وَهُما يَكْتُمانِ سِرَّ ما اكْتَشَفاهُ حَتّى لا يَعْرِفَ أَحَدٌ ذٰلِكَ، وَأَخَذا يُراقِبانِ في هُدوءٍ وَتَرَقُّبٍ.

وَفي اليَوْمِ العاشِرِ نَزَلَ الدكتور مانيت لِتَناوُلِ الإفْطارِ وَكانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّهُ شُفِيَ تَمامًا ، حَتّى إنَّ السَّيِّدَ لوري ٱسْتَطاعَ أنْ يُناقِشَ مَعَهُ بِشَكْلٍ غَيْرِ مُباشِرٍ ما حَدَثَ. لَمْ يَتَذَكَّرِ الدكتور أيَّ شَيْءٍ عَنِ التِّسْعَةِ أيّامِ الَّتي مَضَتْ ، إلّا أَنَّ تَلْميحاتِ السَّيِّدِ لوري جَعَلَتْهُ يُدْرِكُ ما حَدَثَ. وشَكَرَ الدكتور مانيت صَديقَهُ لِٱحْتِفاظِهِ بِالأَمْرِ كُلِّهِ سِرًّا ، وَأَكَّدَ لَهُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ يَحْدُثَ ذٰلِكَ مُسْتَقْبَلًا.

بَعْدَ ٱنْتِهاءِ أيّامِ شَهْرِ العَسَلِ ثُمَّ الإجازَةِ القَصيرَةِ الَّتي قَضاها مَعَهُما الدكتور مانيت ، عادَ تشارلز وَلوسي إلى لندن وَٱسْتَقَرّا في بَيْتٍ حَيْثُ كانَ أصدِقاؤُهُما القُدامى يَتَرَدَّدونَ في زِياراتٍ مُحَبَّبَةٍ إلَيْهِما. وكانَ السَّيِّدُ كارتون أوَّلَ هٰؤُلاءِ الأَصْدِقاءِ الَّذينَ قاموا بِزِيارَتِهِما ، وَبَعْدَ تَصْفِيَةِ الخِلافاتِ القَديمَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تشارلز أَصْبَحَ صَديقًا حَميمًا ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ فَضَّلَ أنْ يَقومَ بِالزِّيارَةِ في المُناسَباتِ فَقَطْ.

وَسَرْعانَ ما أَثْمَرَ الزَّواجُ طِفْلَةً سَمَّياها بِٱسْمِ أُمِّها لوسي. وَأَصْبَحَتْ بِما فيها مِنْ روحِ الطُّفولَةِ مُغْرَمَةً بِسيدني كارتون بِشَكْلٍ خاصٍّ. وَمَضَتْ سِتُّ سَنَواتٍ مِنَ الزَّواجِ الَّذي كانَتْ تُظِلُّهُ السَّعادَةُ ، وَإنْ كانَ يُعَكِّرُ صَفْوَهُ أحْيانًا ما كانَ يُشاعُ مِنْ تَغْييراتٍ كانَتْ تَحْدُثُ في وَطَنِهِما السّابِقِ فَرَنْسا.

* * *

كانَ سُقوطُ سِجْنِ الباستيل في يَدِ الجَماهيرِ الباريسيَّةِ في ١٤ يوليو ١٧٨٩ إيذانًا بِٱنْدِلاعِ الثَّوْرَةِ الفَرَنْسِيَّةِ. وَقَدْ كانَ الدَّوْرُ الَّذي لَعِبَهُ إرنست ديفارج وَرِفاقُهُ المُتَمَرِّدونَ الَّذينَ يَحْمِلونَ ٱسْمًا حَرَكِيًّا واحِدًا ، هُوَ جاك ، دَوْرًا فَعّالًا أدّى إلى ٱقْتِحامِ ذٰلِكَ السِّجْنِ الرَّهيبِ المَقيتِ ، الَّذي كانَ رَمْزًا مُخْزِيًا وَشائِنًا لِلنِّظامِ السّابِقِ.

كانَ إرنست ديفارج في مُقَدِّمَةِ المَعْرَكَةِ ، وَما إنْ أحْكَمَتِ الجَماهيرُ قَبْضَتَها

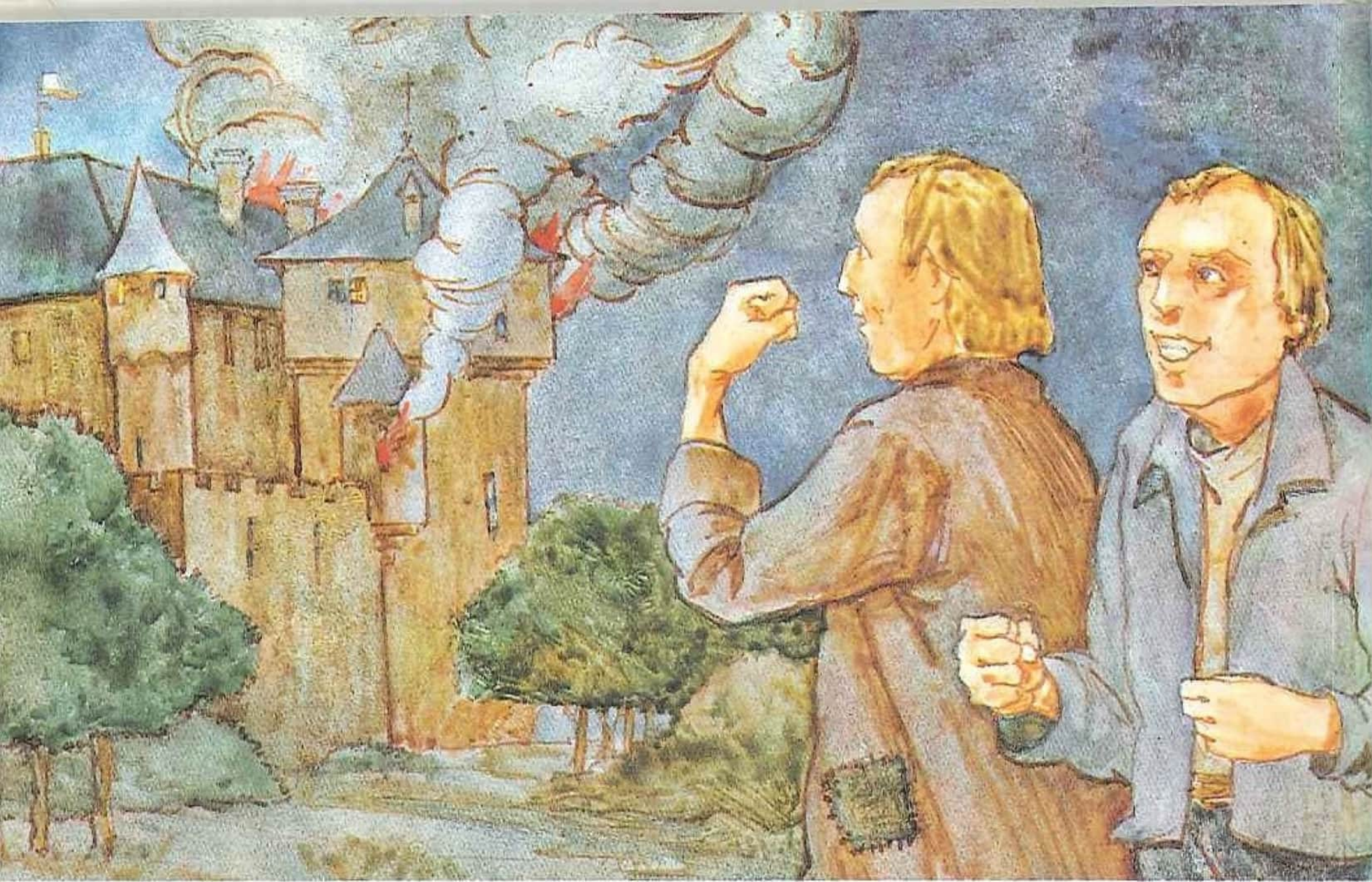




عَلى السِّجْنِ حَتّى اقْتادَ هُوَ وَجاك الثّالِثُ أحَدَ حُرّاسِ السِّجْنِ لِيَأْخُذَهُما إلى زِنْزانَةِ الدكتور مانيت السّابِقَةِ لِلْبَحْثِ عَنْ أيَّةِ مَعْلوماتٍ تَتَعَلَّقُ بِسَجْنِ هٰذا البائِسِ ، إلّا أَنَّ ذٰلِكَ كانَ بِلا طائِلٍ .

وَفي الوَقْتِ نَفْسِهِ حاصَرَتِ الجَماهيرُ حاكِمَ السِّجْنِ، وَما إنْ طُرِحَ أرْضًا وَتَلَقّى الطَّعْنَةَ في ظَهْرِهِ ، حَتّى وَضَعَتِ السَّيِّدَةُ ديفارج قَدَمَها عَلى رَقَبَتِهِ وَفَصَلَتْ رَأسَهُ عَنْ جَسَدِهِ وَأَمَرَتْ بِأَنْ يُعَلَّقَ عَلى أحَدِ الأعْمِدَةِ حَتّى يَراهُ الجَميعُ .

وَقامَ الثُّوّارُ بِإحْراقِ قَصْرِ ماركيز إڤريموند تَمامًا ، تُراقِبُهُمْ عُيونُ القَرَوِيّينَ الفَرِحَةُ ، بَيْنَما كانَ الضُّبّاطُ عاجِزينَ مِنَ الرُّعْبِ عَنِ اتِّخاذِ أيِّ قَرارٍ أوْ تَوْجيهِ أيَّةِ أوامِرَ ، لِأَنَّهُمْ كانوا يَعْتَقِدونَ – وَهٰذا حَقيقِيٌّ – أَنَّ قُوّاتِهِمْ قَدْ تَكونُ مُتَعاطِفَةً مَعَ الثُّوّارِ ، وَبِالتّالي لَنْ يَتَجاهَلوا أوامِرَهُمْ فَقَطْ ، بَلْ قَدْ يُديرونَ أسْلِحَتَهُمْ إلى مَنْ وَجَّهَ إلَيْهِم تِلْكَ الأوامِرَ .



وَصَبَّتْ جَماهيرُ الشَّعْبِ ، الَّتي ظَلَّتْ تُعاني وَتُقاسي أمَدًا طَويلًا مِنَ الطُّغْيانِ ، جامَ غَضَبِها بِلا رَحْمَةٍ أوْ هَوادَةٍ عَلى حُكّامِهِمِ السّابِقينَ خِلالَ الثَّلاثِ سَنَواتِ الَّتي تَلَتِ الثَّوْرَةَ تَحْتَ شِعارِ : الحُرِّيَّةُ وَالمُساواةُ وَالإخاءُ – أوِ المَوْتُ .

وَرَغْمَ أَنَّهُ قَدْ تَمَّ نَفْيُ الكَثيرينَ إلّا أَنَّ الانْتِقامَ لَمْ يَتَوَقَّفْ عِنْدَ هٰذا الحَدِّ . فَقَدْ سُجِنَ كَثيرٌ مِنَ المَسْئولينَ الَّذينَ كانوا مُجَرَّدَ مُوَظَّفينَ في النِّظامِ السّابِقِ ، وَصودِرَتْ مُمْتَلَكاتُهُمْ ، وَبَعْدَ مُحاكَمَةٍ سَريعَةٍ أُعْدِموا لِمُجَرَّدِ أَنَّهُمْ كانوا يُنَفِّذونَ أوامِرَ أسْيادِهِمِ الَّذينَ أُعْدِموا أوْ أُجْبِروا عَلى الهِجْرَةِ مِنْ فرنسا .

وَما إنْ حَلَّ عامُ ١٧٩٢ حَتّى وَصَلَتِ تشارلز دارني أنْباءٌ مُحْزِنَةٌ ، نَتيجَةً لِثَوْرَةٍ لَمْ يُساهِمْ هُوَ في المُمارَساتِ الَّتي دَعَتْ إلى قِيامِها .

فَعِنْدَما وَرِثَ دارني – عَقِبَ وَفاةِ عَمِّهِ – لَقَبَ ماركيز إڤريموند وَأمْلاكَ عَمِّهِ ، عَلى غَيْرِ رَغْبَتِهِ ، أمَرَ مُعاوِنَهُ «جابل» المَسْئولَ عَنْ جَمْعِ الضَّرائِبِ أَنْ يَبْذُلَ كُلَّ ما في وُسْعِهِ مِنْ جُهْدٍ لِيُخَفِّفَ عَنْ كاهِلِ رَعاياهُ مِنَ الفُقَراءِ .

وَنَتيجَةً لِذٰلِكَ لَمْ تُحَصَّلْ أيُّ ضَرائِبَ أَوْ إيجاراتٍ عَنِ السَّنَواتِ العَشْرِ الَّتي أعْقَبَت وَفاةَ عَمِّهِ. إلّا أَنَّ هٰذا العَمَلَ الخَيِّرَ لَمْ يُنْقِذْ «جابل» مَعَ ذٰلِكَ مِنَ العُقوباتِ الَّتي قَرَّرَتْها الثَّوْرَةُ، فَظَلَّ حَبيسًا بِالسِّجْنِ بِانْتِظارِ الإعْدامِ بِتُهْمَةِ مُساعَدَةِ أحَدِ المُهاجِرينَ، لِأَنَّهُ – طِبْقًا لِلْقانونِ الجَديدِ – إمّا أَنْ يَعودَ المُهاجِرُ لِمُحاكَمَتِهِ أمامَ مَحْكَمَةٍ ثَوْرِيَّةٍ، أَو أَنْ تَكونَ حَياةُ وَكيلِهِ هِيَ الثَّمَنَ.

تَلَقَّى تشارلز دارني تِلْكَ الأَنْباءَ عَنِ الوَرْطَةِ الَّتي وَقَعَ فيها مُساعِدُهُ الوَفِيُّ مِنْ خِلالِ خِطابٍ أُرْسِلَ إلَيْهِ بِواسِطَةِ بَنْكِ تيلسون بلندن، في نَفْسِ اليَوْمِ الَّذي عَلِمَ فيهِ أَنَّ السَّيِّدَ لوري كانَ بِصَدَدِ القِيامِ بِالسَّفَرِ إلى فرنسا لِيَنوبَ عَنْ عُمَلاءِ بَنْكِ تيلسون الفَرَنْسِيِّينَ. وَٱسْتَطاعَ دارني بِمُساعَدَةِ السَّيِّدِ لوري أَنْ يُخْبِرَ جابل بِأَنَّ المُساعَدَةَ في الطَّريقِ إلَيْهِ، وَٱسْتَعَدَّ في نَفْسِ اليَوْمِ لِلسَّفَرِ إلى فرنسا لإنْقاذِ مُساعِدِهِ المُخْلِصِ.

وَقَضى دارني تِلْكَ اللَّيْلَةَ في كِتابَةِ خِطابَيْنِ: أَحَدُهُما إلى زَوْجَتِهِ لوسي، وَالآخَرُ إلى والِدِ زَوْجَتِهِ الدكتور مانيت، الَّذي لَمْ يُخْبِرْ غَيْرَهُ كَما وَعَدَهُ بِحَقيقَةِ شَخْصِيَّتِهِ.

كانَ اليَوْمُ التّالي يَوْمًا عَصيبًا؛ لِأَنَّ دارني ٱضْطُرَّ إلى قَضائِهِ مَعَ أَقْرَبِ وَأَحَبِّ النّاسِ إلَيْهِ دونَ أَنْ يُطْلِعَهُمْ عَلى خُطَطِهِ. وَفي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ قَبَّلَ زَوْجَتَهُ وَٱبْنَتَهُ لَدى خُروجِهِ مِنَ المَنْزِلِ مُتَظاهِرًا بِأَنَّهُ سَوْفَ يَعودُ عَلى الفَوْرِ.

بَدَأَ رِحْلَتَهُ وَهُوَ مُثْقَلُ القَلْبِ، لٰكِنْ ما كانَ يُشَجِّعُهُ فَقَطْ فِكْرَةُ أَنَّهُ ذاهِبٌ لِتَقْديمِ العَوْنِ لِسَجينٍ بائِسٍ يَنْتَظِرُهُ عَلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ القَنالِ الإنْجليزِيِّ.

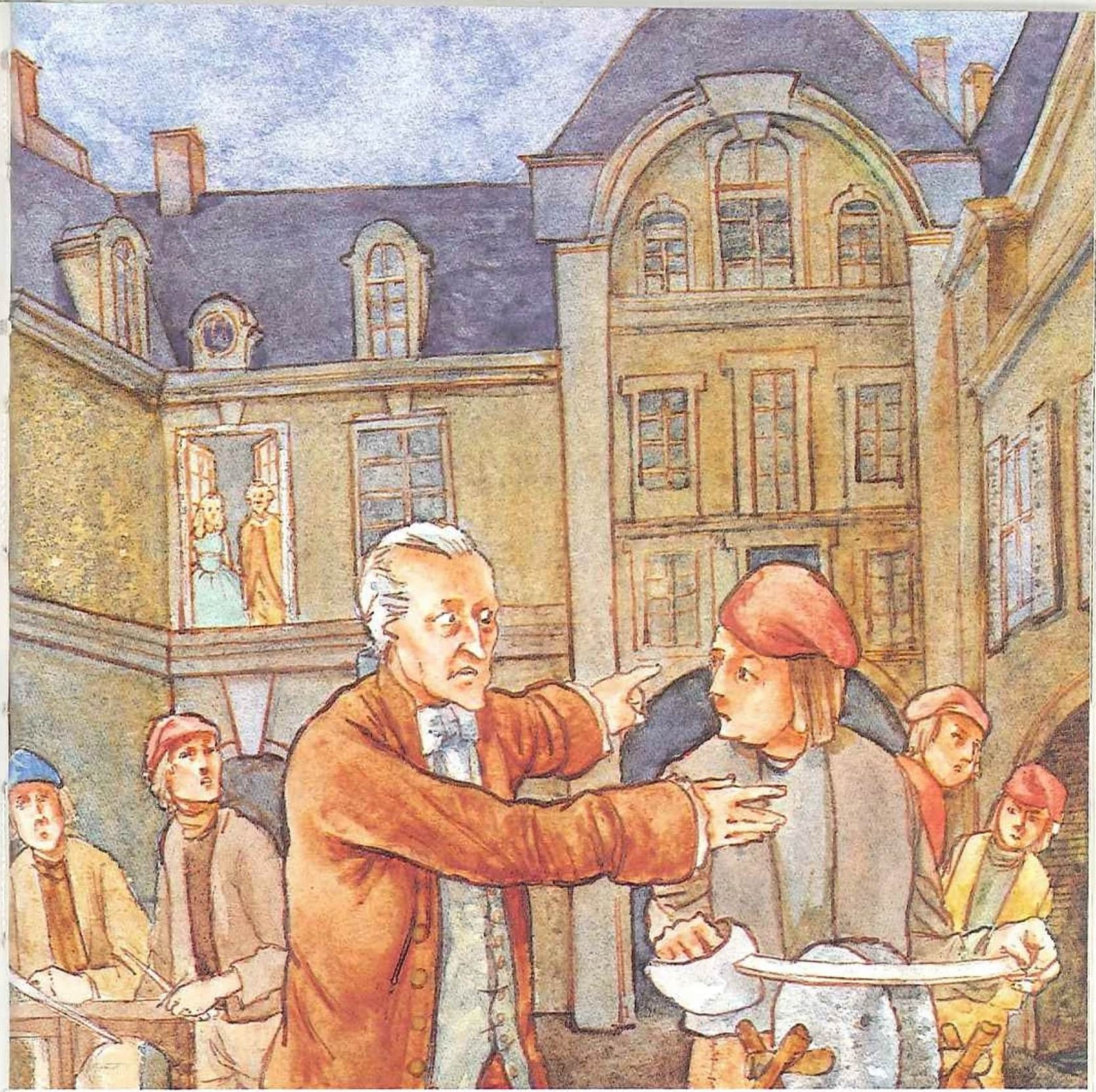
عِنْدَما وَصَلَ دارني إلى فرنسا، كانَ يَعْتَبِرُ نَفْسَهُ إنْسانًا حُرًّا يُسافِرُ إلى باريس وَيَتَحَرَّكُ بِحُرِّيَّتِهِ. وَسُرْعانَ ما ٱكْتُشِفَ أَمْرُهُ، أَمّا كَيْفَ، فَهٰذِهِ حِكايَةٌ أُخْرى؛ فَقَدْ قُبِضَ عَلَيْهِ وَأُودِعَ السِّجْنَ وَأُجْبِرَ عَلى دَفْعِ رَسْمِ دُخولِ العاصِمَةِ. وَهُناكَ تَعَرَّفَ عَلَيْهِ المُواطِنُ ديفارج، وَزَجَّ بِهِ في سِجْنِ «لافورس» الكَريهِ اسْتِنادًا إلى قانونٍ جَديدٍ

صَدَرَ في نَفْسِ اليَوْمِ الَّذي غادَرَ فيهِ إنْجِلْترا ، وَيَقْضي بِالمَوْتِ عَلى كُلِّ أولٰئِكَ المُهاجِرينَ الَّذينَ يَعودونَ إلى وَطَنِهِمْ .

أمّا السَّيِّدُ لوري فَقَدْ وَصَلَ تَقْريبًا في نَفْسِ الوَقْتِ الَّذي وَصَلَ فيهِ دارني ، وَأقامَ في ٱسْتِراحَةِ بَنْكِ تيلسون وَهُوَ يَجْهَلُ تَمامًا ٱلمَصيرَ الَّذي آلَ إلَيْهِ صَديقُهُ الشّابُّ .

كانَ هُناكَ حَجَرُ شَحْذٍ ضَخْمٌ في الفِناءِ المُواجِهِ لِمَقَرِّ إقامَتِهِ ، حَيْثُ تَجَمَّعَ المُواطِنونَ الطَّيِّبونَ أوِ الوَطَنِيّونَ كَما كانوا يُطْلِقونَ عَلى بَعْضِهِمِ البَعْضِ في تِلْكَ





الأيّامِ ، جاءوا لِيَشْحَذوا أسْلِحَتَهُمْ حتّى يُدافِعوا عَنِ الجُمْهورِيَّةِ الأولى وَشِعارِها الرَّهيبِ : الحُرِّيَّةُ وَالمُساواةُ وَالإخاءُ – أوِ المَوْتُ .

وَبَعْدَ يَوْمِ عَمَلٍ شاقٍّ كانَ السَّيِّدُ لوري يُراقِبُ الحَشْدَ البَشَرِيَّ المُتَعَطِّشَ إلى الدِّماءِ وَالمُتَجَمِّعَ في الفِناءِ أمامَ مَقَرِّ إقامَتِهِ وَيَحْمَدُ اللهَ مِنْ كُلِّ قَلْبِهِ ، لِعَدَمِ وُجودِ أحَدٍ مِنْ أصْدِقائِهِ في باريس تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، عِنْدَما فُتِحَ الباب فَجْأَةً وَاَنْدَفَعَتْ لوسي وَوالِدُها إلى داخِلِ الحُجْرَةِ .

فَقَدِ ٱطَّلَعا عَلى رِسالَتَيْ دارني اللَّتينِ يُصَرِّحُ فيهما بِنِيَّتِهِ في السَّفَرِ إلى باريس لِيُنْقِذَ مُساعِدَهُ السّابِقَ «جابل». فَأَدْرَكَ الدكتور عَلى الفَوْرِ الخَطَرَ الحَقيقِيَّ لِلْمَأْزِقِ الَّذي تَوَرَّطَ فيهِ، وَقَرَّرَ الحُضورَ بِنَفْسِهِ إلى باريس لِمُساعَدَتِهِ. فَقَدْ كانَ يَعْتَقِدُ - نَظَرًا لأَنَّهُ سَجينٌ سابِقٌ في سِجْنِ الباستيل - أَنَّ قادَةَ الجُمْهورِيَّةِ الجَديدَةِ سَوْفَ يُصْغونَ إِلَيْهِ بِكُلِّ تَقْديرٍ.

وَلَقَدْ حَدَثَ ما يُبَرِّرُ هٰذِهِ الثِّقَةَ بِالنَّفْسِ تَمامًا، فَعِنْدَما عَرَفَ مَكانَ سِجْنِ دارني تَجَوَّلَ بَيْنَ الجَماهيرِ المُحْتَشِدَةِ في الفِناءِ خارِجَ البَنْكِ وَطالَبَهُمْ بِإِنْقاذِ زَوْجِ ٱبْنَتِهِ. في البِدايَةِ سادَ الصَّمْتُ ثُمَّ حَمَلَتْهُ الجَماهيرُ في الحالِ إلى السِّجْنِ وَسْطَ هُتافاتٍ: «يَحْيا سَجينُ الباستيل! أَنْقِذوا نَسيبَهُ السَّجينَ إِڤريموند في لافورس! العَوْنُ لِأُسْرَةِ سَجينِ الباستيل في لافورس!» حَتّى وَصَلوا بِهِ إلى السِّجْنِ.

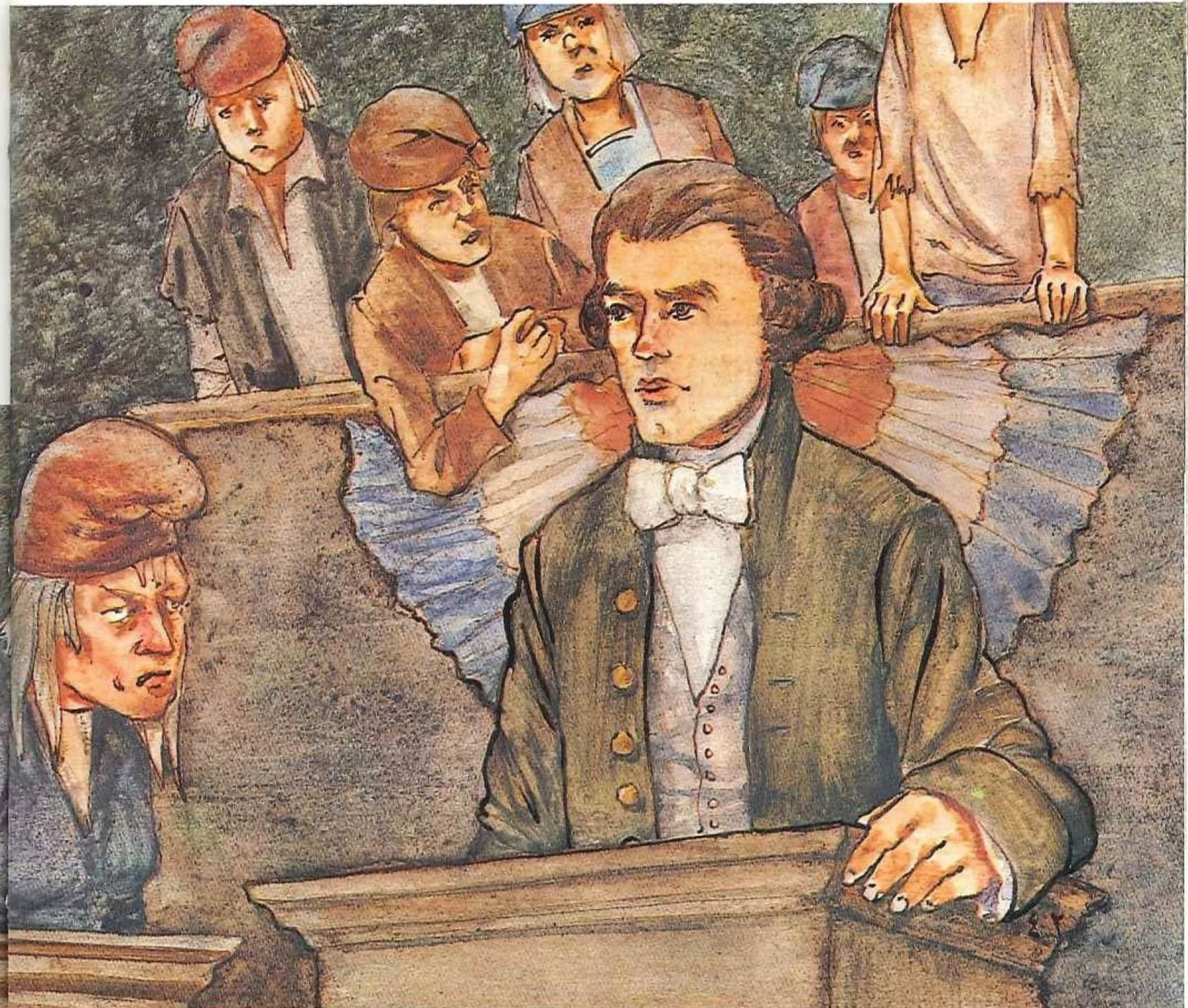
وَلَقَدْ وَصَلَ الدكتور مانيت في الوَقْتِ المُناسِبِ، فَفي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَالأيّامِ الَّتي تَلَتْها حَدَثَتْ مَجْزَرَةٌ لِأَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ سَجينٍ أَعْزَلَ ما بَيْنَ رَجُلٍ وَٱمْرَأَةٍ وَطِفْلٍ عَلى أَيْدي الجَماهيرِ أَثْناءَ ٱنْتِظارِهِمْ لِلْمُحاكَمَةِ، إِلّا أَنَّ دارني لَمْ يُصِبْهُ أَيُّ أَذًى.

وَجاءَتْ مَرْحَلَةُ التَّحَلّي بِالصَّبْرِ، فَقَدْ أُتيحَ لِلدّكتورِ مانيت أَنْ يُعَيَّنَ طَبيبًا بِالسِّجْنِ بِناءً عَلى كَوْنِهِ ضَحِيَّةً لِلنِّظامِ السّابِقِ، فَأَمْكَنَهُ بِذٰلِكَ أَنْ يَسْتَغِلَّ مَكانَتَهُ وَعَلاقاتِهِ الطِّبِّيَّةَ في أَنْ يَضْمَنَ سَلامَةَ دارني وَحُسْنَ مُعامَلَتِهِ خِلالَ الخَمْسَةَ عَشَرَ شَهْرًا حَتّى حانَ دَوْرُهُ في النِّهايَةِ كَيْ يُواجِهَ المَحْكَمَةَ.

اِنْتابَ القَلَقُ السَّيِّدَ لوري مِنْ أَجْلِ حالَةِ الدكتور مانيت النَّفْسِيَّةِ؛ خَشْيَةَ أَنْ يُؤَثِّرَ عَلَيْهِ التَّوَتُّرُ وَالضَّغْطُ النَّفْسِيُّ، فَيَنْتُجَ عَنْهُ ٱنْتِكاسَةٌ عَقْلِيَّةٌ. فَٱلْتَفَّ حَوْلَهُ أَصْدِقاؤُهُ وَمُحِبّوهُ وَأَحاطوهُ بِالتَّشْجيعِ وَالعَوْنِ حَتّى تَغَيَّرَ الحالُ وَوَجَدَ الجَميعُ أَنْفُسَهُمْ عَلى النَّقيضِ يَعْتَمِدونَ عَلى ما تَفَجَّرَ داخِلَهُ مِنْ قُوَّةٍ أَعانَتْهُ عَلى تَحَمُّلِ تِلْكَ الفَتْرَةِ العَصيبَةِ.

وَأخيرًا حَلَّ اليَوْمُ الَّذي طالَ ٱنْتِظارُهُ ، وَقُدِّمَ اللاَّجئُ تشارلز إفريموند وَالمُسَمّى دارني إلى المُحاكَمَةِ . كانَ تَرْتيبُهُ السّادِسَ عَشَرَ في مَجْموعَةٍ مُكَوَّنَةٍ مِنْ عِشْرينَ شَخْصًا مَثُلوا أمامَ مَحْكَمَةِ الثَّوْرَةِ في ذٰلِكَ اليَوْمِ . واسْتَغْرَقَتْ مُحاكَمَةُ وَإدانَةُ خَمْسَةَ عَشَرَ شَخْصًا ساعَةً وَنِصْفَ السّاعَةِ فَقَطْ ، وَحُكِمَ عَلَيْهِمْ بِالإعْدامِ بِالمِقْصَلَةِ . تِلْكَ الآلَةُ البَشِعَةُ لِلْمَوْتِ وَالَّتي ٱسْتُخْدِمَتْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مَعَ ٱنْدِلاعِ الثَّوْرَةِ .

وَجاءَ دَوْرُ دارني فَوَقَفَ أمامَ القاضي وَالمُحَلَّفينَ ، وَبَعْضِ المُتَفَرِّجينَ مِنْ رَعاعِ باريس . هٰؤُلاءِ الَّذينَ ٱنْقَطَعوا تَمامًا لِلتَّمَتُّعِ بِمُشاهَدَةِ جَلَسات إدانَةِ وَإعْدامِ مِئاتِ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالأَطْفالِ بِجَرائِمَ لَمْ يَرْتَكِبوها مُطْلَقًا ، لٰكِنْ طِبْقًا لِقَوانينَ وُضِعَتْ حَديثًا فَقَطْ .

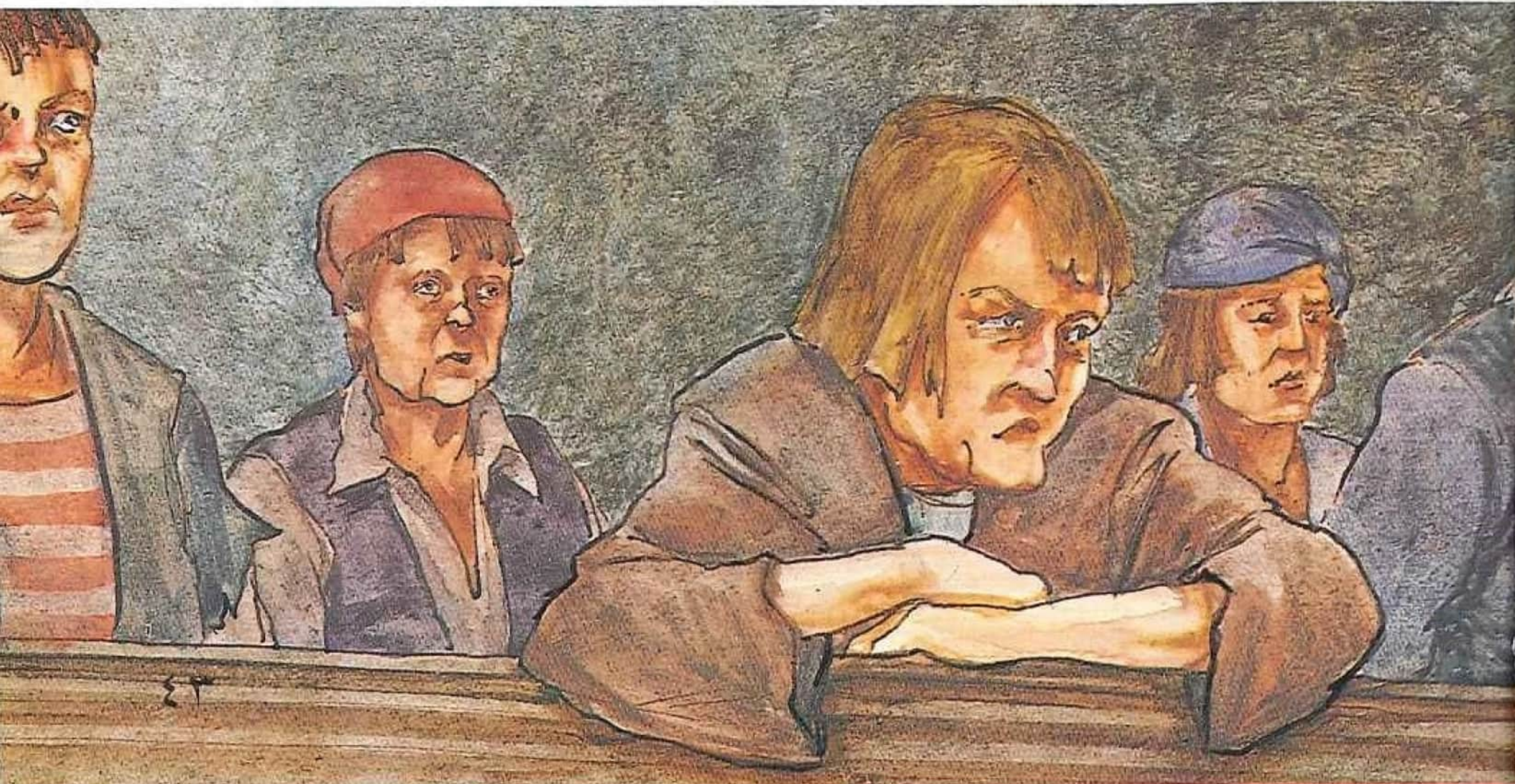


كانَتِ التُّهْمَةُ المُوَجَّهَةُ لدارني ، أَنَّهُ بِٱعْتِبارِهِ لاجِئًا فَلا بُدَّ أَنْ يُدانَ طِبْقًا لِلْقانونِ الَّذي يُحَرِّمُ عَوْدَةَ كُلِّ اللاَّجِئينَ لِلْخارِجِ إلى فرنسا . وَلَمْ يوضَعْ في الاعْتِبارِ أَنَّ هٰذا القانونَ شُرِّعَ عِنْدَ عَوْدَتِهِ وَعَلى هٰذا لَمْ يَكُنْ هُناكَ مَفَرٌّ مِنِ ٱعْتِبارِهِ لاجِئًا وَالحُكْمِ عَلَيْهِ بِالإعْدامِ .

صاحَ الحَشْدُ قائِلًا : «اقْطَعوا رَأْسَهُ .. إنَّهُ عَدُوُّ الجُمْهورِيَّةِ .» وَلَمْ تَلْقَ قَضِيَّةُ دارني أُذُنًا صاغِيَةً مِنْ هَيْئَةِ المَحْكَمَةِ المُتَعَطِّشَةِ إلى الدِّماءِ ، إلّا عِنْدَما صَرَّحَ أَنَّهُ تَزَوَّجَ الابْنَةَ الوَحيدَةَ لِلدكتور مانيت المَعْروفِ لِلْجَميعِ جَيِّدًا بِوَلائِهِ لِلْجُمْهورِيَّةِ وَالسَّجينِ السّابِقِ في سِجْنِ الباستيل .

وَأَثْناءَ نَظَرِ القَضِيَّةِ تَساءَلَ دارني مُتَعَجِّبًا : «لَقَدْ عُدْتُ لِأُنْقِذَ حَياةَ مُواطِنٍ وَلِكَيْ أكونَ شاهِدًا مَعَهُ مَهْما كَلَّفَني ذٰلِكَ مِنْ مَخاطِرَ ، فَهَلْ يُعَدُّ هٰذا في نَظَرِ الجُمْهورِيَّةِ جَريمَةً ؟» أَثارَتْ هٰذِهِ الكَلِماتُ الحَشْدَ الَّذي أَجابَ في صَوْتٍ واحِدٍ : «لا !»

قَرَعَ رَئيسُ المَحْكَمَةِ الجَرَسَ حَتّى يَلْزَموا الصَّمْتَ ، إلّا أَنَّ الحَشْدَ الَّذي لَمْ يَكُنْ في الإمْكانِ السَّيْطَرَةُ عَلَيْهِ ظَلَّ مُسْتَمِرًّا في صِياحِهِ : «لا !» .





وَٱسْتُدْعِيَ المُواطِنُ جابل ، الَّذي عادَ دارني مِنْ أَجْلِ إِنْقاذِ حَياتِهِ ، إِلى المَحْكَمَةِ كَشاهِدٍ مِثْلَما ٱسْتُدْعِيَ أَيْضًا الدّكتور مانيت وَالسَّيِّدُ لوري ، الَّذي أَوْضَحَ لِلْمَحْكَمَةِ أَنَّ المُتَّهَمَ سَبَقَتْ مُحاكَمَتُهُ مِنْ قَبْلُ أَمامَ مَحْكَمَةٍ إِنْجليزِيَّةٍ بِتُهْمَةِ عَدائِهِ لإِنْجِلْتِرا وَصَداقَتِهِ لِلْوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ وَبِناءً عَلى ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ صَديقًا لِفَرَنْسا .

وَسَمِعَتِ المَحْكَمَةُ الكَثيرَ بَعْدَ ذٰلِكَ ، وَصَوَّتَ أَعْضاءُ المَحْكَمَةِ بِالإِجْماعِ لِصالِحِ السَّجينِ . وَعَلا التَّصْفيقُ لِدَرَجَةِ أَنَّ رَئيسَ المَحْكَمَةِ أَمَرَ الجَميعَ بِالهُدوءِ حَتّى يَسْتَطيعَ أَنْ يُعْلِنَ بَراءَةَ دارني . وَحَمَلَتْهُ الجَماهيرُ في نَشْوَةٍ حَتّى بَيْتِهِ . كانَ الجَميعُ في غايَةِ السَّعادَةِ – فيما عَدا ديفارج وَزَوْجَتَهُ – بِإِطْلاقِ سَراحِ دارني وَعَوْدَتِهِ إِلى حِضْنِ زَوْجَتِهِ وَأُسْرَتِهِ .

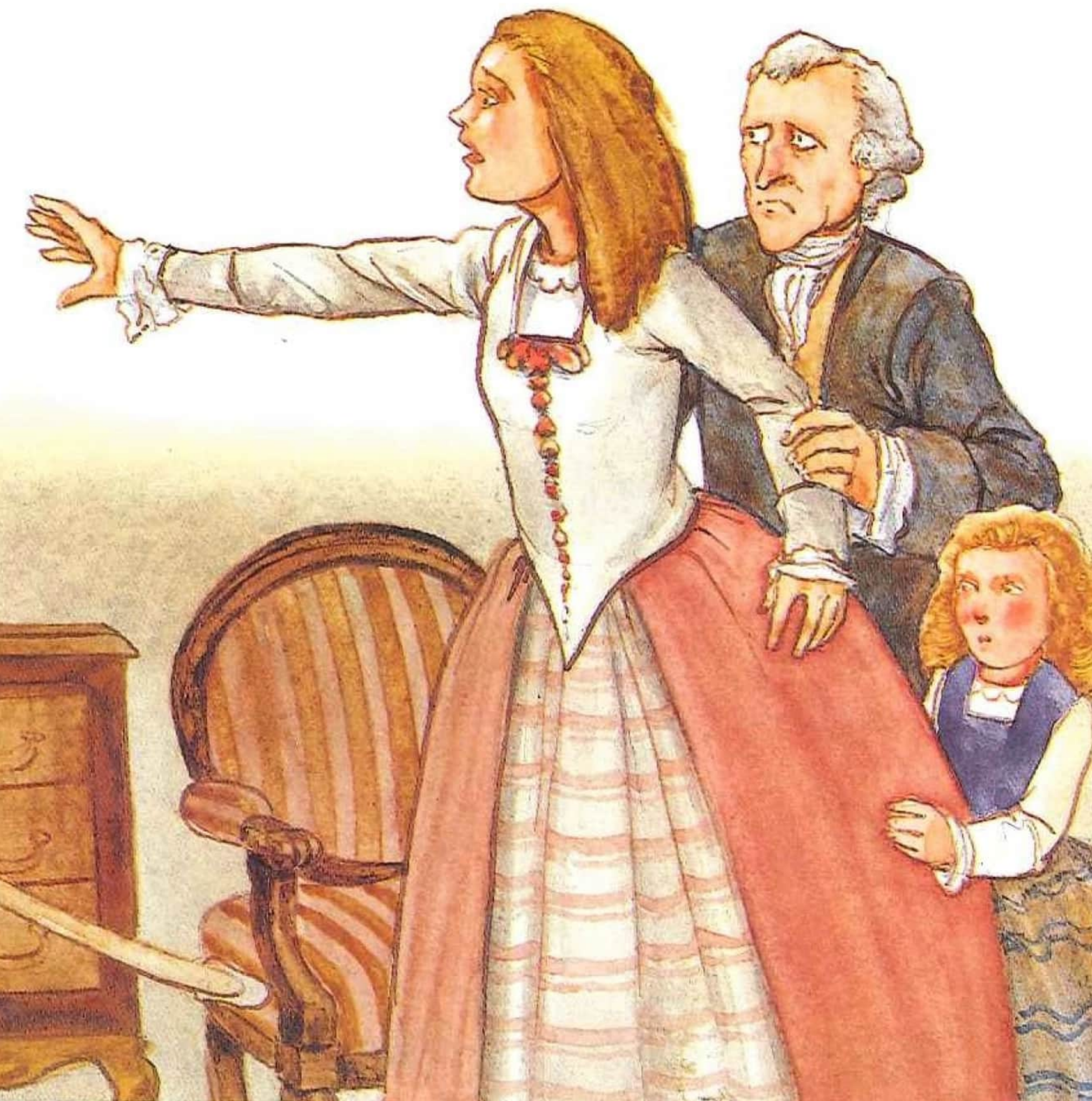
وَما إِنْ رَأَتْهُ لوسي حَتّى قالَتْ : «حَبيبي تشارلز ! فَلْنَشْكُرِ اللهَ أَنْ أَنْقَذَكَ وَأَعادَكَ إِلَيْنا في أَمانٍ ، بَعْدَ الَّذي تَعَرَّضْتَ لَهُ مِنْ مَخاطِرَ . »

أَحْنى دارني وَلوسي رَأْسَيْهِما حَمْدًا للهِ . وَحَضَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ الدّكتور مانيت لاهِثًا وَإِنْ كانَ سَعيدًا وَفَخورًا ، وَتَبِعَهُ السَّيِّدُ لوري بِفَتْرَةٍ قَصيرَةٍ .

قالَ دارني لِلوسي : «وَالآنَ يا حَبيبَتي يَنْبَغي أَنْ نَشْكُرَ أَباكِ . لَمْ يَكُنْ بِٱسْتِطاعَةِ أَيِّ رَجُلٍ في فَرَنْسا كُلِّها أَنْ يَفْعَلَ ما فَعَلَهُ مِنْ أَجْلي . »

وَرَغْمَ أَنَّهُما كانا في شَوْقٍ لِلْعَوْدَةِ إِلى بَيْتِهِما الآمِنِ وَالهادِئِ في إِنْجِلْتِرا ، إِلّا أَنَّ الدكتور مانيت نَصَحَهُما بِعَدَمِ العَجَلَةِ في ذٰلِكَ ؛ لِأَنَّهُ كانَ يَعْتَقِدُ ، كَما أَخْبَرَ الآنِسَةَ بروس ، حينَ طَلَبَ مِنْها أَنْ تَتَحَقَّقَ مِنْ بَعْضِ المَعْلوماتِ حَوْلَ القَضِيَّةِ ، بِأَنَّ التَّسَرُّعَ في المُغادَرَةِ سَيُسَبِّبُ مَشاكِلَ .

لَمْ يَنْعَمْ تشارلز وَلوسي في الحَقيقَةِ إِلّا بِوَقْتٍ قَصيرٍ بَعْدَ عَوْدَةِ كُلٍّ مِنْهُما لِلْآخَرِ ، فَقَدْ واجَهَتْهُما مِحْنَةٌ أُخْرى :



لَقَدْ أُلْقِيَ القَبْضُ على تشارلز مَرَّةً أُخْرى بَعْدَ عَوْدَتِهِ بِساعَتَيْنِ ، بَعْدَ أَنْ أَبْلَغَ عَنْهُ ديفارج وَزَوْجَتُهُ وَشَخْصٌ آخَرُ ، كَما قالَ الحَرَسُ لِلدّكتور مانيت .

وَبَيْنَما كانَتْ هٰذِهِ الأَحْداثُ تَجْري ، كانَتِ الآنِسَةُ بروس ، مُدَبِّرَةُ بَيْتِ الدكتور مانيت ، وَخادِمُ السَّيِّدِ لوري يَسيرانِ في الشّارِعِ فَأَصابَتْهُما دَهْشَةٌ مُفاجِئَةٌ . فَقَدْ تَعَرَّفَتِ الآنِسَةُ بروس أَثْناءَ شِرائِها بَعْضَ المُتَطَلَّباتِ عَلى شَقيقِها سولومون المَفْقودِ مُنْذُ فَتْرَةٍ طَويلَةٍ . وَكانَ خادِمُ السَّيِّدِ لوري يَعْرِفُ ذٰلِكَ الرَّجُلَ مُنْذُ اليَوْمِ الَّذي حُوكِمَ فيهِ دارني بِإِنْجلترا ، لٰكِنَّهُ كانَ يَحْمِلُ اسْمًا آخَرَ وَهُوَ جون ... وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَذَكَّرَ الاسْمَ الكامِلَ .



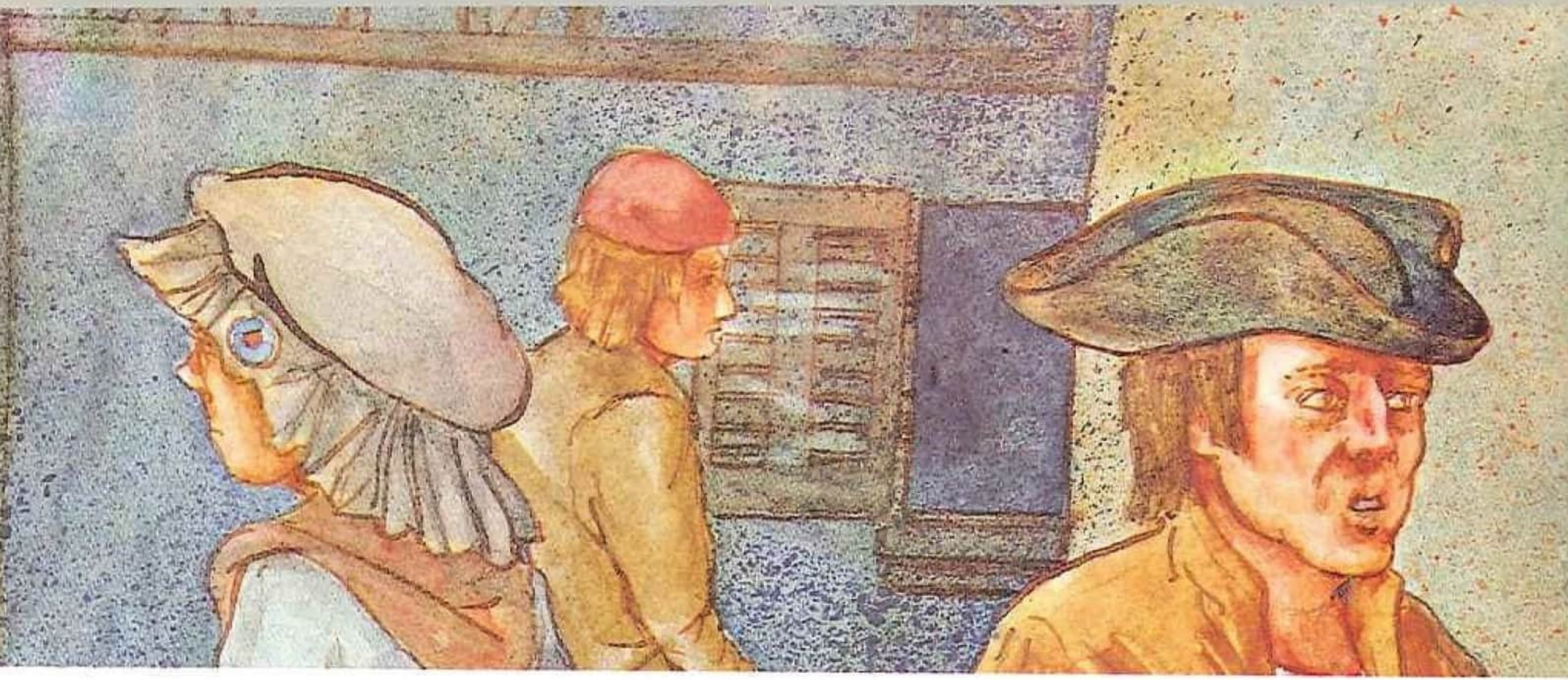
أَكَّدَ ذٰلِكَ سيدني كارتون الَّذي كانَ قَدْ وَصَلَ إلى باريس مُنْذُ ٢٤ ساعَةً وَأَخَذَ يُراقِبُهُ . وها هُوَ يَظْهَرُ فَجْأَةً وَيُواجِهُهُ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ مَعَ أُخْتِهِ في الشّارِعِ . إِنَّهُ «سولومون بروس» المَعْروفُ بِاسْمِ «جون بارساد» ، أَحَدُ الجَواسيسِ الَّذينَ أَبْلَغوا عَنْ دارني لَدى الحُكومَةِ الإِنْجليزِيَّةِ بِتُهْمَةِ التَّجَسُّسِ لِحِسابِ فرنسا في وَقْتٍ سابِقٍ مِمّا أَدّى إلى مُحاكَمَتِهِ في لندن . وَعِنْدَما طُرِدَ مِنْ خِدْمَةِ الحُكومَةِ الإِنْجليزِيَّةِ لِعَدَمِ كَفاءَتِهِ ، عَمِلَ «بارساد» في بِدايَةِ الأَمْرِ لِصالِحِ النِّظامِ القَديمِ في فرنسا ، وَفي الوَقْتِ الحالِيِّ وَبِنَفْسِ الكَفاءَةِ يَعْمَلُ جاسوسًا لِحِسابِ الثَّوْرَةِ الفَرَنْسِيَّةِ . وَنَتيجَةً لِكُلِّ ذٰلِكَ كانَ مِنَ الطَّبيعِيِّ أَنْ يَسيرَ في هٰذِهِ اللَّحْظَةِ يَنْتابُهُ الخَوْفُ عَلى حَياتِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَحُلَّ عَلَيْهِ الدَّوْرُ ، وَيُبَلَّغَ عَنْهُ بِاعْتِبارِهِ عَدُوًّا لِلشَّعْبِ .



فَكَّرَ سيدني كارتون في أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَغِلَّ «بارساد» ٱسْتِغلالًا جَيِّدًا لِتَنْفيذِ خُطَطِهِ الخاصَّةِ، فَدَعاهُ لِمُصاحَبَتِهِ إِلى مَنْزِلِ السَّيِّدِ لوري لِمُناقَشَةِ بَعْضِ المَوْضوعاتِ ذاتِ المَصالِحِ المُشْتَرَكَةِ. وَكانَتْ دَعْوَةً لا يَجْرُؤُ «بارساد» على رَفْضِها. وَٱسْتَطاعَ السَّيِّدُ لوري كَذٰلِكَ أَنْ يَتَعَرَّفَ على «بارساد» على أَنَّهُ كانَ جاسوسًا رَسْمِيًّا مِنْ قَبْلُ مَعَ الإِنْجليزِ.

وَنَجَحَ سيدني كارتون مُسْتَغِلًّا ظُروفَ «بارساد» غَيْرَ المُسْتَقِرَّةِ في أَنْ يُقْنِعَهُ بِسُهولَةٍ بِأَنْ يَتَعاوَنَ مَعَهُما لِلْوُصولِ إِلى دارني في السِّجْنِ إِذا دَعَتِ الضَّرورَةُ لِذٰلِكَ.

قامَ «بارساد» بِإِسْداءِ أولى خِدْماتِهِ إِلى سيدني كارتون في اليَوْمِ التّالي، وَذٰلِكَ بِأَنْ

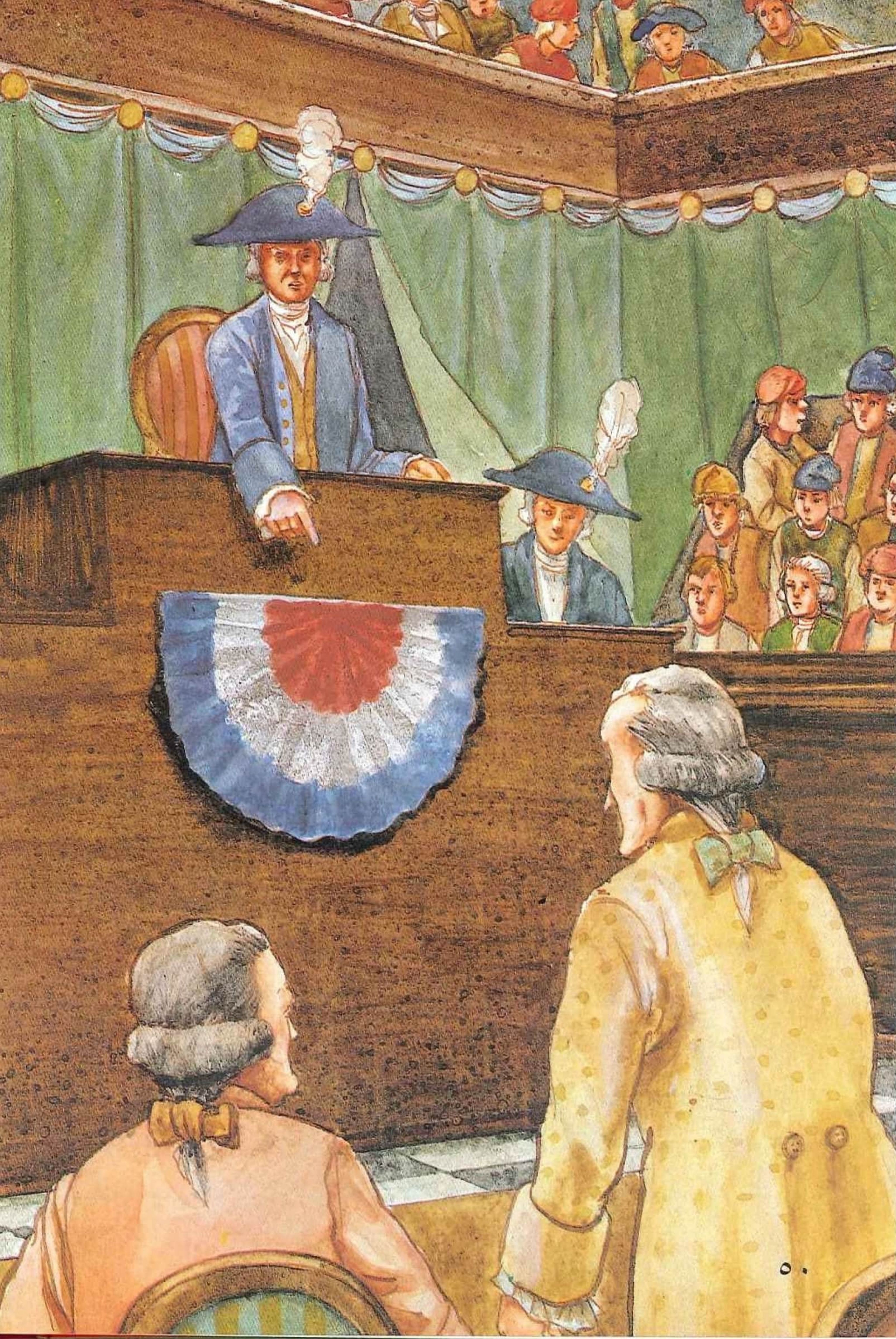


ضَمِنَ لَهُ مَكانًا في المَحْكَمَةِ الغاصَّةِ الَّتي عُقِدَتْ لِسَماعِ تَفاصيلِ التُّهْمَةِ الجَديدَةِ بِحَقِّ دارني عَقِبَ إِبْلاغِ الزَّوْجَيْنِ ديفارج وَشَخْصٍ آخَرَ عَنْهُ.

وَما إِنْ فَتَحَ رَئيسُ المَحْكَمَةِ الجَلْسَةَ وَقَرَأَ الاتِّهامَ، وَقالَ إِنَّ الشَّخْصَ الآخَرَ ما هُوَ إِلّا الدكتور مانيت حَتّى دَهِشَ الرَّجُلُ الطَّيِّبُ مِثْلَما دَهِشَ الآخَرونَ بِهٰذا النَّبَإِ وَوَقَفَ في الحالِ لِيُنْكِرَ هٰذا الادِّعاءَ. إِلّا أَنَّهُ ٱسْتِجابَةً لِرَئيسِ المَحْكَمَةِ الَّذي قالَ لَهُ: «ٱسْتَمِعْ إِلى البَقِيَّةِ... وَأَرْجو أَنْ تَلْتَزِمَ الصَّمْتَ!» عادَ إِلى الجُلوسِ وَٱسْتَمَعَ إِلى الدَّليلِ الجَديدِ الَّذي قَدَّمَهُ ديفارج إِلى المَحْكَمَةِ.

قيلَ لِلْمَحْكَمَةِ إِنَّ إرنست ديفارج كانَ يَوْمَ سُقوطِ الباستيل ضِمْنَ المَجْموعَةِ الأولى مِنَ الثُّوّارِ الَّذينَ ٱقْتَحَموا السِّجْنَ، وَطَلَبَ أَنْ يَرى زِنْزانَةَ السَّجينِ السّابِقِ الدكتور مانيت، حَيْثُ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا رَغْمَ بَحْثِهِ. إِلّا أَنَّهُ في حَقيقَةِ الأَمْرِ وَجَدَ شَيْئًا ذا أَهَمِّيَّةٍ شَديدَةٍ، وَالَّذي أَحْضَرَهُ لِلْمَحْكَمَةِ في اليَوْمِ السّابِقِ.

كانَ هٰذا الدَّليلُ شَهادَةً كَتَبَها الدكتور مانيت نَفْسُهُ وَوَجَدَها ديفارج مَوْضوعَةً في أَحَدِ شُقوقِ المِدْخَنَةِ في الزِّنْزانَةِ الَّتي قَضى بِها عَشْرَ سَنَواتٍ مِنْ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً قَضاها في السِّجْنِ. وَهٰذا الدَّليلُ لَمْ يَكُنْ لِيَسْتَطيعَ أَحَدٌ سِوى ديفارج أَنْ يَكْتَشِفَهُ وَبِصُعوبَةٍ بالِغَةٍ. وَأَوْضَحَ الدَّليلُ، لِلْمَرَّةِ الأولى، السَّبَبَ الَّذي مِنْ أَجْلِهِ سُجِنَ الدكتور مانيت، وَكَشَفَ السِّرَّ الغامِضَ الَّذي كانَ خافِيًا لِمُدَّةٍ طَويلَةٍ.



كانَتِ القِصَّةُ الَّتي ٱسْتَمعَتْ إِلَيْها المَحْكَمَةُ في ذٰلِكَ اليَوْمِ غَريبَةً حَقًّا.

في عامِ ١٧٥٧ كانَ الدكتور مانيت الطَّبيبُ الشّابُّ النّاجِحُ في باريس، يَتَمَشّى ذاتَ مَساءٍ عَلى ضِفافِ نَهْرِ السينِ، فَرَأى عَرَبَةً تَقِفُ أَمامَهُ وَيَنْزِلُ مِنْها ٱثْنانِ مِنَ النُّبَلاءِ لَهُما مَظْهَرٌ جَذّابٌ وَاقْتَرَبا مِنْهُ وَٱسْتَدْعَياهُ لِحالَةٍ عاجِلَةٍ في مَكانٍ مُجاوِرٍ، وَرَفَضا الإِفْصاحَ عَنْ شَخْصِيَّتَيْهِما. لَقَدْ كانا في حَقيقَةِ الأَمْرِ ماركيز إِڤريموند وَأَخاهُ التَّوْأَمَ، وَهُما والِدُ وَعَمُّ تشارلز دارني.

كانَ الابْنُ الأَصْغَرُ لِعائِلَةِ إِڤريموند مُغْرَمًا بِحُبِّ فَتاةٍ ريفِيَّةٍ صَغيرَةٍ ٱبْنَةِ أَحَدِ مُسْتَأْجِريهِ. وَتَزَوَّجَتْ مِنْ شابٍّ عَليلٍ جارٍ لَها، وَبَدَأَ ٱبْنُ إِڤريموند الصَّغيرُ يَعْهَدُ إِلَيْهِ بِالعَمَلِ الصَّعْبِ، بِإِجْبارِهِ عَلى جَرِّ عَرَبَةٍ كَالحِصانِ حَتّى ماتَ.

بَعْدَ أَنْ ماتَ الشّابُّ بِسَبَبِ الإِنْهاكِ وَسوءِ المُعامَلَةِ، ٱخْتَطَفَ إِڤريموند أَرْمَلَةَ الشّابِّ عَنْوَةً وَأَغْواها. وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ الَّتي كانَتْ تَرْقُدُ وَهِيَ تَهْذي لِما أَصابَها مِنْ فَضيحَةٍ وَخِزْيٍ وَكانَتْ عَلى وَشْكِ المَوْتِ، عَلِمَ أَخوها البالِغُ مِنَ العُمْرِ سَبْعَةَ عَشَرَ عامًا بِمَكانِها، فَتَسَلَّلَ إِلى المَكانِ الَّذي تَرْقُدُ فيهِ وَحيدَةً، وَقَرَّرَ إِمّا أَنْ يُنْقِذَها أَوْ يَثْأَرَ لَها. وَٱكْتَشَفَ إِڤريموند وُجودَ الغُلامِ في المَنْزِلِ فَطَعَنَهُ بِسَيْفِهِ وَتَرَكَهُ هُوَ أَيْضًا لِيَموتَ في حُجْرَةٍ مُجاوِرَةٍ. وكانَ الاثْنانِ هُما المُهِمَّةَ الَّتي عُهِدَ بِها إِلى الدكتور مانيت: حالَتانِ مَيْئوسٌ مِنْ شِفائِهِما.

وَما إِنْ وَصَلَ الدكتور مانيت حَتّى ماتَ الاثْنانِ، ضَحِيَّةً بَريئَةً لِخِسَّةِ الأَرِسْتُقْراطِيَّةِ. ماتَتِ الفَتاةُ وَهِيَ تَهْذي وَماتَ الفَتى وَهُوَ يَلْعَنُ آلَ إِڤريموند.

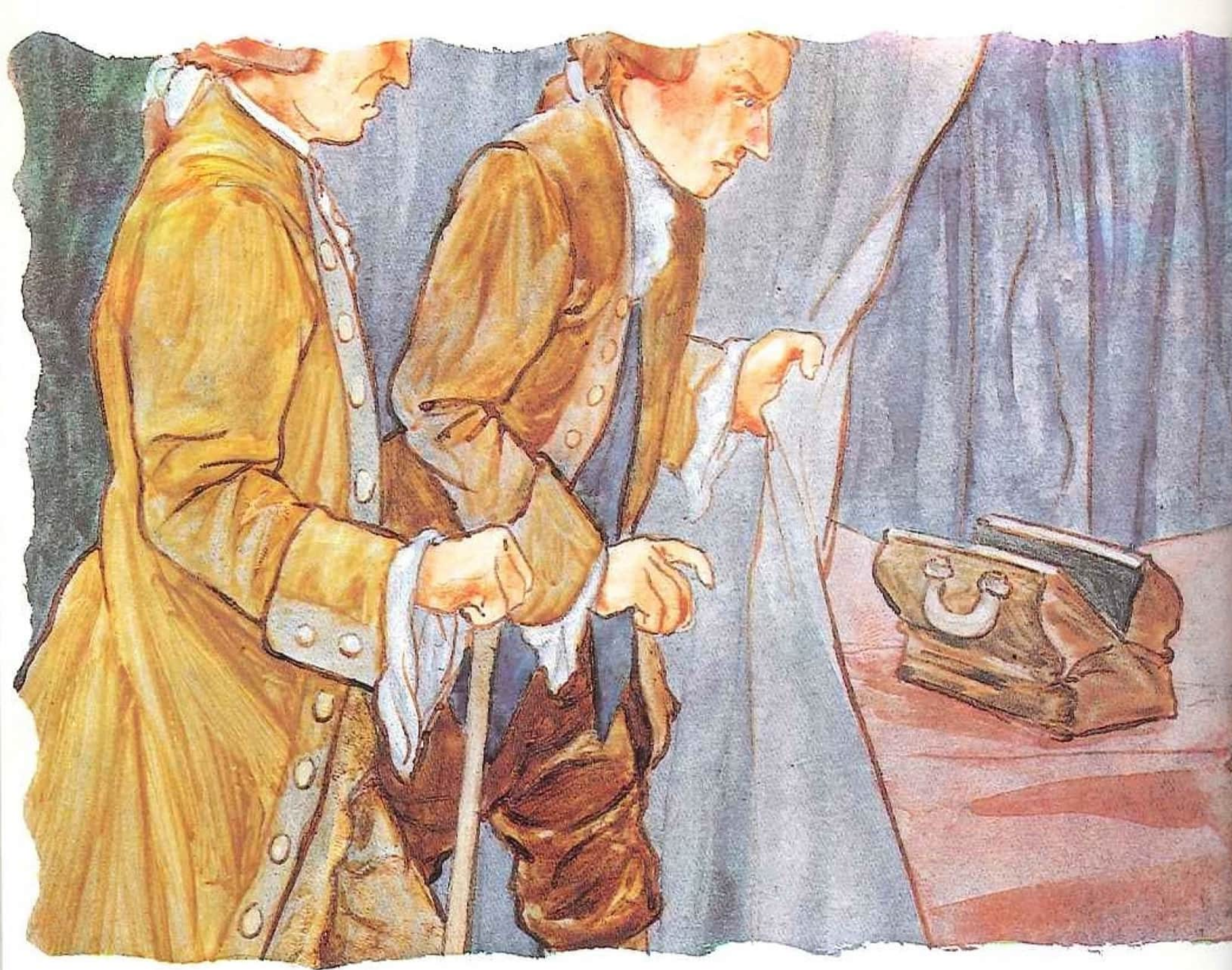
وَقُدِّمَتْ لِلدكتور مانيت رِشْوَةٌ مِنَ الذَّهَبِ حَتّى لا يَشِيَ بِسِرِّ ما رَآهُ، إِلّا أَنَّهُ رَفَضَ وَآثَرَ أَنْ يَكْتُبَ خِطابًا سِرِّيًّا إِلى أَحَدِ وُزَراءِ البَلاطِ المَلَكِيِّ. وَوَقَعَتْ هٰذِهِ الرِّسالَةُ في أَيْدي الأَخَوَيْنِ اللَّذَيْنِ ٱنْتَقَما شَرَّ ٱنْتِقامٍ مِنَ الطَّبيبِ البَريءِ. فَقَبَضا عَلَيْهِ وَأَلْقَياهُ في السِّجْنِ بِلا مُحاكَمَةٍ حَيْثُ ظَلَّ عَشْرَ سَنَواتٍ مَحْرومًا مِنْ رُؤْيَةِ العالَمِ،



قَبْلَ أَنْ يُفكِّرَ في الجُلوسِ لِلْكِتابَةِ. وَقَدْ أَنْهى الدّكتور مانيت شَهادَتَهُ المَكْتوبَةَ بِاللَّعْنَةِ عَلى آلِ إِڤريموند وَأَحْفادِهِمْ إِلى آخِرِ شَخْصٍ مِنْ نَسْلِهِمْ.

لَمْ يَكُنْ مُجْدِيًا ٱلآنَ ما أَعْلَنَهُ الدكتور مانيت مِنْ نَدَمٍ وَتَراجُعٍ عَنْ رَغْبَتِهِ القَديمَةِ في الانْتِقامِ ؛ فَلَقَدْ حَكَمَتِ المَحْكَمَةُ عَلى تشارلز إِڤريموند المَعْروفِ بِاسْمِ دارني زَوْجِ ٱبْنَتِهِ المَحْبوبَةِ لوسي بِالإِعْدامِ خِلالَ أَرْبَعٍ وَعِشْرينَ ساعَةً.

بَعْدَ النُّطْقِ بِالحُكْمِ ، ٱنْدَفَعَتِ الجَماهيرُ كَالعادَةِ لِلتَّعْبيرِ عَنِ ٱبْتِهاجِها ، تارِكينَ لوسي لِتُوَدِّعَ زَوْجَها الوَداعَ الأَخيرَ. أَمّا الدّكتور مانيت فَقَدِ ٱنْهارَ تَمامًا ، وَكادَ



يَجْثو مُتَوَسِّلًا عَفْوَهُما ، لٰكِنَّ دارني مَنَعَهُ صارِخًا : «كَلّا ، كَلّا ! ما الجُرْمُ الَّذي ٱرْتَكَبْتَهُ حَتّى تَرْكَعَ مِنْ أَجْلِنا؟ لَقَدْ عَرَفْنا الآنَ مِقْدارَ الكِفاحِ الَّذي بَذَلْتَهُ فيما مَضى مِنْ أَجْلِ لوسي. كانَ اللهُ مَعَكَ!»

وَما إِنِ ٱقْتيدَ دارني بَعيدًا حَتّى أُغْمِيَ عَلى لوسي. عِنْدَئِذٍ بَدَأَ سيدني كارتون في التَّحَرُّكِ ، فَتَقَدَّمَ خُطُواتٍ خارِجَ بَهْوِ المَحْكَمَةِ الكَئيبَةِ وَطَلَبَ السَّماحَ بِتَوْصيلِ لوسي إِلى عَرَبَةٍ في ٱنْتِظارِها.

عِنْدَ الوُصولِ إِلى بَيْتِ الدّكتور مانيت ، حَثَّ سيدني كارتون الطَّبيبَ لِيَبْذُلَ

أقْصى وُسْعِهِ لِمُحاوَلَةِ إنْقاذِ دارني حَتّى في هٰذِهِ السّاعَةِ المُتَأَخِّرَةِ بِأَنْ يُقَدِّمَ ٱلْتِماساتٍ إلى قادَةِ الثَّوْرَةِ ، فَرُبَّما يَكونُ لَهُ تَأْثيرٌ عَلَيْهِمْ . قامَ كارتون بِذٰلِكَ عَلى أمَلِ أَنْ يَشْغَلَ ذِهْنَ الدكتور مانيت وَمَشاعِرَهُ ، وَلَيْسَ عَلى أمَلٍ حَقيقِيٍّ في تَحْقيقِ أيِّ نَجاحٍ .

وَمِنْ بَيْتِ الدّكتور مانيت تَوَجَّهَ كارتون إلى مَحَلِّ ديفارج في سانت أنطوان ، قاصِدًا لَفْتَ النَّظَرِ إلى وُجودِهِ وإلى الشَّبَهِ بَيْنَهُ وبَيْنَ دارني . وَفي مَحَلِّ ديفارج عَرَفَ كارتون سَبَبَ كَراهِيَةِ السَّيِّدَةِ ديفارج الشَّديدَةِ لِعائِلَةِ إِڤريموند . لَقَدْ كانَ ٱنْتِقامُها لا



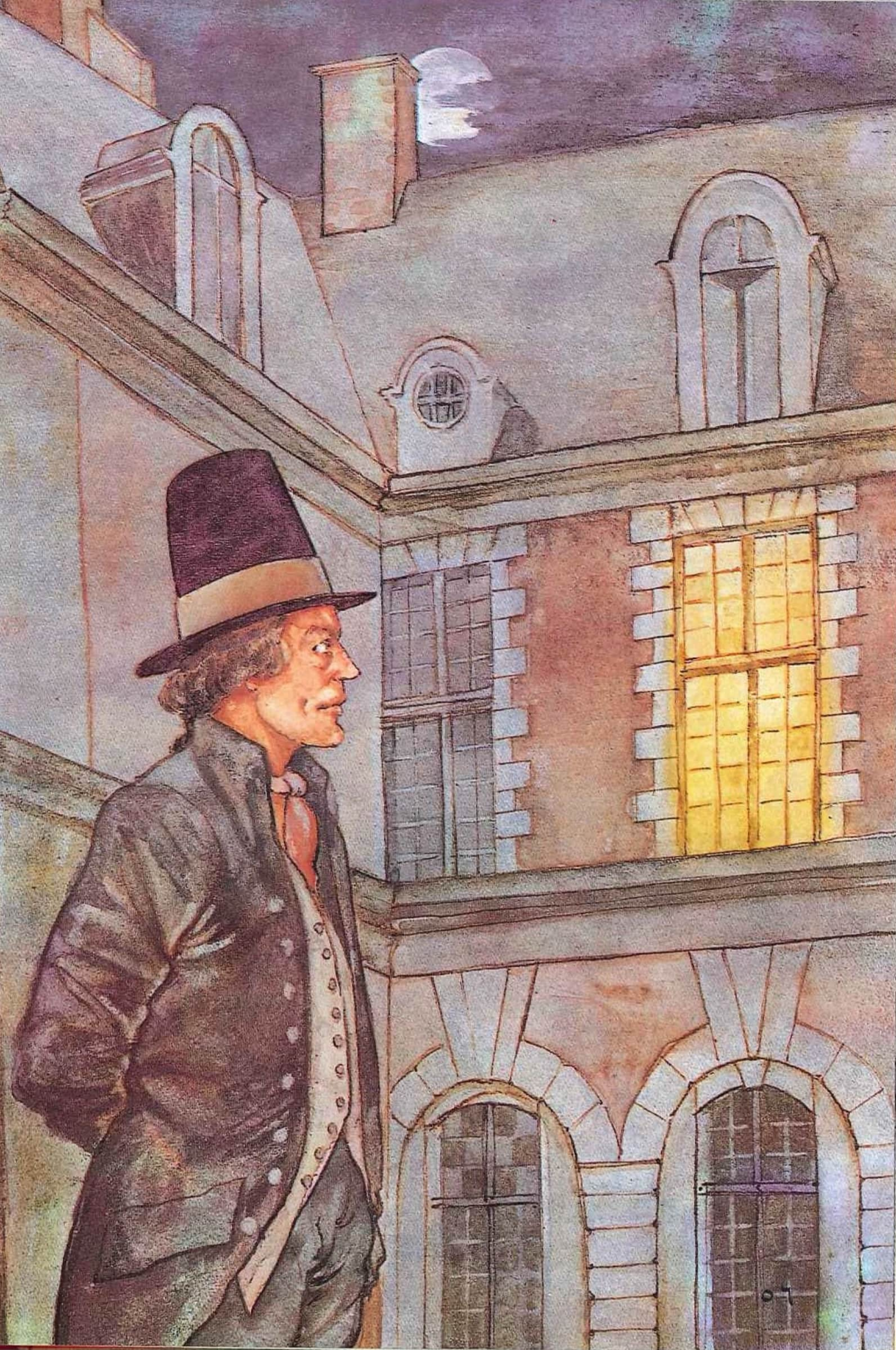
حُدودَ لَهُ ، لِأَنَّها كانَتِ الأُخْتَ الصُّغْرى لِلزَّوْجَةِ الشّابَّةِ - الَّتي كانَتْ سَتُصْبِحُ أُمًّا ، وَالَّتي ٱسْتَغَلَّها نَبيلُ عائِلَةِ إڤريموند أَسْوَأَ ٱسْتِغلالٍ . وَقَدِ اضْطُرَّتْ أَنْ تَكْتُمَ كَراهِيَتَها وَجَعَلَتْ خُطَّتَها في الِانْتِقامِ سِرًّا حَمَلَتْهُ مُدَّةَ خَمْسَةٍ وَعِشْرينَ عامًا .

وَعِنْدَ سَماعِ كارتون حِكايَةَ السَّيِّدَةِ ديفارج ، أَدْرَكَ عَلى وَجْهِ اليَقينِ ما الَّذي يَجِبُ أَنْ يَفْعَلَهُ ، فَذَهَبَ إِلى بَيْتِ السَّيِّدِ لوري لِمُقابَلَةِ الدّكتور مانيت في السّاعَةِ التّاسِعَةِ كَما هُوَ مُحَدَّدٌ حَتّى يَعْرِفَ ما ٱسْتَطاعَ الدّكتور مانيت أَنْ يُحَقِّقَهُ مِنْ خِلالِ ٱلْتِماساتِهِ الَّتي قَدَّمَها مِنْ أَجْلِ الرَّحْمَةِ . وَوَصَلَ الرَّجُلُ المِسْكينُ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ في غايَةِ الإِنْهاكِ بَعْدَ مُعاناتِهِ مِنِ ٱخْتِلالٍ ذِهْنِيٍّ ؛ فَكانَتْ تَصَرُّفاتُهُ تَمَسُّ شَغافَ القَلْبِ إِذْ تَوَسَّلَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُحْضِروا لَهُ مِنْضَدَةً وَأَدَواتِ صِناعَةِ الأَحْذِيَةِ . وَبِمُساعَدَةِ الصَّديقِ الوَفِيِّ السَّيِّدِ لوري أَعادَ كارتون الدّكتور مانيت إِلى بَيْتِهِ لِرِعايَةِ لوسي الرَّقيقَةِ .

وَبِذِهْنٍ مُتَيَقِّظٍ تَمامًا ، أَقْنَعَ كارتون السَّيِّدَ لوري أَنْ يَتَّبِعَ تَعْليماتِهِ حَرْفِيًّا وَدونَ أَسْئِلَةٍ أَوْ تَرَدُّدٍ . وَعِنْدَما وافَقَ السَّيِّدُ لوري عَلى ذٰلِكَ طَلَبَ مِنْهُ كارتون أَنْ يَسْتَعِدَّ لِمُغادَرَةِ باريس إِلى إِنْجِلْترا بِصُحْبَةِ لوسي وَطِفْلَتِها وَوالِدِها في تَمامِ السّاعَةِ الثّانِيَةِ في اليَوْمِ التّالي ، وَما عَلَيْهِمْ إِلّا أَنْ يَتَوَقَّعوا وُصولَهُ فَقَطْ .

اِنْصَرَفَ كارتون وَأَخَذَ يَتَمَشّى في المَدينَةِ الموحِشَةِ وَالفِناءِ الَّذي تُطِلُّ عَلَيْهِ حُجْرَةُ نَوْمِ لوسي . وَظَلَّ هُناكَ لِبِضْعِ لَحَظاتٍ وَحيدًا ، يَتَطَلَّعُ إِلى ضَوْءِ النّافِذَةِ . وَقَبْلَ أَنْ يُغادِرَ المَكانَ هَمَسَ بِالدُّعاءِ لَها مُوَدِّعًا .

* * *



فِي السِّجْنِ كانَ تشارلز دارني يَقْضي السّاعاتِ الأخيرَةَ القَليلَةَ الباقِيَةَ جالِسًا عَلى الأرْضِ يَكْتُبُ بَعْضَ الخِطاباتِ. في خِطابِهِ الأوَّلِ أوْضَحَ لِزَوْجَتِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ تَوَرُّطِ عائِلَتِهِ في القَضِيَّةِ الَّتي أدَّتْ إلى سَجْنِ والِدِها، وَأَنَّهُ عِنْدَما أخْفى عَنْها شَخْصِيَّتَهُ الحَقيقِيَّةَ، لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ إلّا تَنفيذًا لِرَغْبَةِ والِدِها وَتَعْليماتِهِ. وَالآنَ فَقَطْ أدْرَكَ مَغْزى ما طَلَبَهُ مِنْهُ والِدُها. وَرَجاها أَنْ تَعْمَلَ عَلى راحَتِهِ وَخَتَمَ رِسالَتَهُ بِأَنْ أكَّدَ لَها أَنَّهُما سَوْفَ يَلْتَقِيانِ مَرَّةً أُخْرى في عالَمِ السَّعادَةِ بَعْدَ المَوْتِ.

وَفي خِطابِهِ الثّاني الَّذي كَتَبَهُ إلى حَميهِ، أَوْصاهُ أَنْ تَكونَ زَوْجَتُهُ وَطِفْلَتُهُ تَحْتَ رِعايَتِهِ وَمَسْئولِيَّتِهِ. وَقَدْ أرادَ بِذٰلِكَ أَنْ يُجَنِّبَهُ أيَّ اخْتِلالٍ عَقْلِيٍّ، حَتّى لا يَعودَ إلى نَفْسِ الحالَةِ الَّتي كانَ عَلَيْها بَعْدَ إطْلاقِ سَراحِهِ مِنَ السِّجْنِ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

أمّا خِطابُهُ الأخيرُ، الَّذي كانَ لِلسَّيِّدِ لوري، فَقَدْ أوْضَحَ لَهُ فيهِ كُلَّ ما يَتَعَلَّقُ بِالشُّئونِ المادِّيَّةِ، وَأثْنى عَلى صَداقَتِهِ المَتينَةِ.

كانَ ذِهْنُ دارني مَمْلوءًا بِأُناسٍ آخَرينَ حَتّى إِنَّهُ لَمْ يَتَذَكَّرْ لِلَحْظَةٍ سيدني كارتون. ثُمَّ سَمِعَ بابَ زِنْزانَتِهِ يُفْتَحُ وَحِوارًا مُخْتَصَرًا بِالإِنْجِليزِيَّةِ، لِيَجِدَ سيدني كارتون يَقِفُ أَمامَهُ.

وَعِنْدَما أَفاقَ دارني مِنَ المُفاجَأَةِ وَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ كارتون نَفْسَهُ لَمْ يَأْتِ سَجينًا، طَلَبَ مِنْهُ كارتون أَنْ يُنَفِّذَ رَجاءَ زَوْجَتِهِ الأَخيرَ ويَقومَ بِكُلِّ ما يَطْلُبُهُ مِنْهُ.

وَتَنْفيذًا لِتَعْليماتِ كارتون تَبادَلَ كُلٌّ مِنْهُما مَلابِسَ الآخَرِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُدَوِّنَ الرِّسالَةَ الَّتي سَيُمْليها عَلَيْهِ.



سَأَلَهُ دارني: «بِاسْمِ مَنْ أُعَنْوِنُها؟»

أَجابَهُ كارتون: «لا أَحَدَ. اُكْتُبْ فَقَطْ ما سَأُمْليهِ عَلَيْكَ.» أَمْسَكَ دارني بِالقَلَمِ وَاسْتَعَدَّ لِلْكِتابَةِ: «إِنْ كُنْتِ تَتَذَكَّرينَ الكَلِماتِ الَّتي تَبادَلْناها مُنْذُ فَتْرَةٍ طَويلَةٍ، فَسَوْفَ تَفْهَمينَ هٰذِهِ عِنْدَما تَصِلُكِ. أَعْرِفُ أَنَّكِ تَتَذَكَّرينَ.. إِنَّني واثِقٌ، فَلَيْسَ مِنْ طَبيعَتِكِ النِّسْيانُ. أَنا مُمْتَنٌّ لِأَنَّ الوَقْتَ قَدْ حانَ لِأُبَرْهِنَ صِحَّةَ ما قُلْتُهُ. وَأَنا إِنْ كُنْتُ أَفْعَلُ هٰذا فَلَيْسَ هُناكَ داعٍ لِلْحُزْنِ أَوِ الأَسَفِ.»



وَبَيْنَما دارني مُسْتَمِرٌّ في الكِتابَةِ... شَعَرَ بِأَنَّهُ يَفْقِدُ الوَعْيَ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتّى أَصْبَحَتِ الكَلِماتُ الَّتي يَكْتُبُها مُجَرَّدَ عَلاماتٍ لا مَعْنى لَها، ثُمَّ سَقَطَ عَلى الأَرْضِ، فَقَدْ أَثَّرَ عَلَيْهِ المُخَدِّرُ الشَّديدُ الَّذي كانَ يُخْفيهِ كارتون في يَدَيْهِ. ثُمَّ بَدَأَ كارتون في التَّصَرُّفِ بِسُرْعَةٍ، فَأَخْفى الخِطابَ في مَلابِسِ دارني وَهُوَ فاقِدٌ وَعْيَهُ بِحَيْثُ يُمْكِنُ لِلوسي أَنْ تَجِدَهُ فيما بَعْدُ.. ثُمَّ ٱسْتَدعى بارساد، الَّذي حَمَلَ دارني إِلى العَرَبَةِ الَّتي كانَتْ في الِانْتِظارِ لِتُقِلَّهُ إِلى مَكانٍ آمِنٍ في إِنْجِلْترا مُتَخَفِّيًا في شَخْصِيَّةِ سيدني كارتون المُحامي اللَّندنِيِّ.

وَفي نَفْسِ الوَقْتِ ٱسْتَعَدَّ كارتون لِمُواجَهَةِ المَوْتِ. وَلَمْ يَكُنْ بِحاجَةٍ لِلِانْتِظارِ طَويلًا، فَقَدْ تَعَدَّتِ السّاعَةُ الثّانِيَةَ بِالفِعْلِ، وَكانَتِ التَّرْتيباتُ قَدْ أُعِدَّتْ لِإِعْدامِ مَجْموعَةِ اليَوْمِ الَّتي تَتَأَلَّفُ مِنِ ٱثْنَيْنِ وَخَمْسينَ شَخْصًا، عَلى أَنْ تَكونَ في الثّالِثَةِ. وَعَقِبَ رَحيلِ دارني مُباشَرَةً في زِيِّ صَديقِهِ البائِسِ، جاءَ الحُرّاسُ وَٱقْتادوا مَنْ يُظَنُّ أَنَّهُ إِڤريموند فَقَيَّدَتْ يَداهُ وَٱنْضَمَّ إِلى الآخَرينَ في جَوْلَتِهِم الأَخيرَةِ بِشَوارِعِ باريس.

لَمْ يَشُكَّ أَحَدٌ في الأَمْرِ سِوى سَجينَةٍ شابَّةٍ، عُمْرُها عِشْرونَ عامًا تَعْمَلُ حائِكَةَ مَلابِسَ، فَقيرَةٍ وَبَريئَةٍ تَمامًا مِنَ التُّهْمَةِ الَّتي ٱتُّهِمَتْ بِٱرْتِكابِها ضِدَّ الجُمْهورِيَّةِ، إِلّا أَنَّها كانَتْ راضِيَةً بِالمَوْتِ، إِذا كانَ ذٰلِكَ - بِشَكْلٍ أَوْ بِآخَرَ - قَدْ يَعودُ بِالنَّفْعِ عَلى الفُقَراءِ.

أَيْقَنَتِ الفَتاةُ بِسُرْعَةٍ مَدى نُبْلِ تِلْكَ التَّضْحِيَةِ العَظيمَةِ مِنْ قِبَلِ كارتون فَتَحَرَّكَتْ فيها القُوَّةُ لِمُواجَهَةِ المَوْتِ وَقالَتْ لَهُ: «هَلْ تَسْمَحُ لي أَيُّها البَطَلُ الشُّجاعُ الغَريبُ أَنْ أُمْسِكَ يَدَكَ؟» وَأَجابَها كارتون بِعاطِفَةٍ شَديدَةٍ: «نَعَمْ.. نَعَمْ.. أَيَّتُها الأُخْتُ البائِسَةُ.. حَتّى آخِرِ لَحْظَةٍ.»

* * *

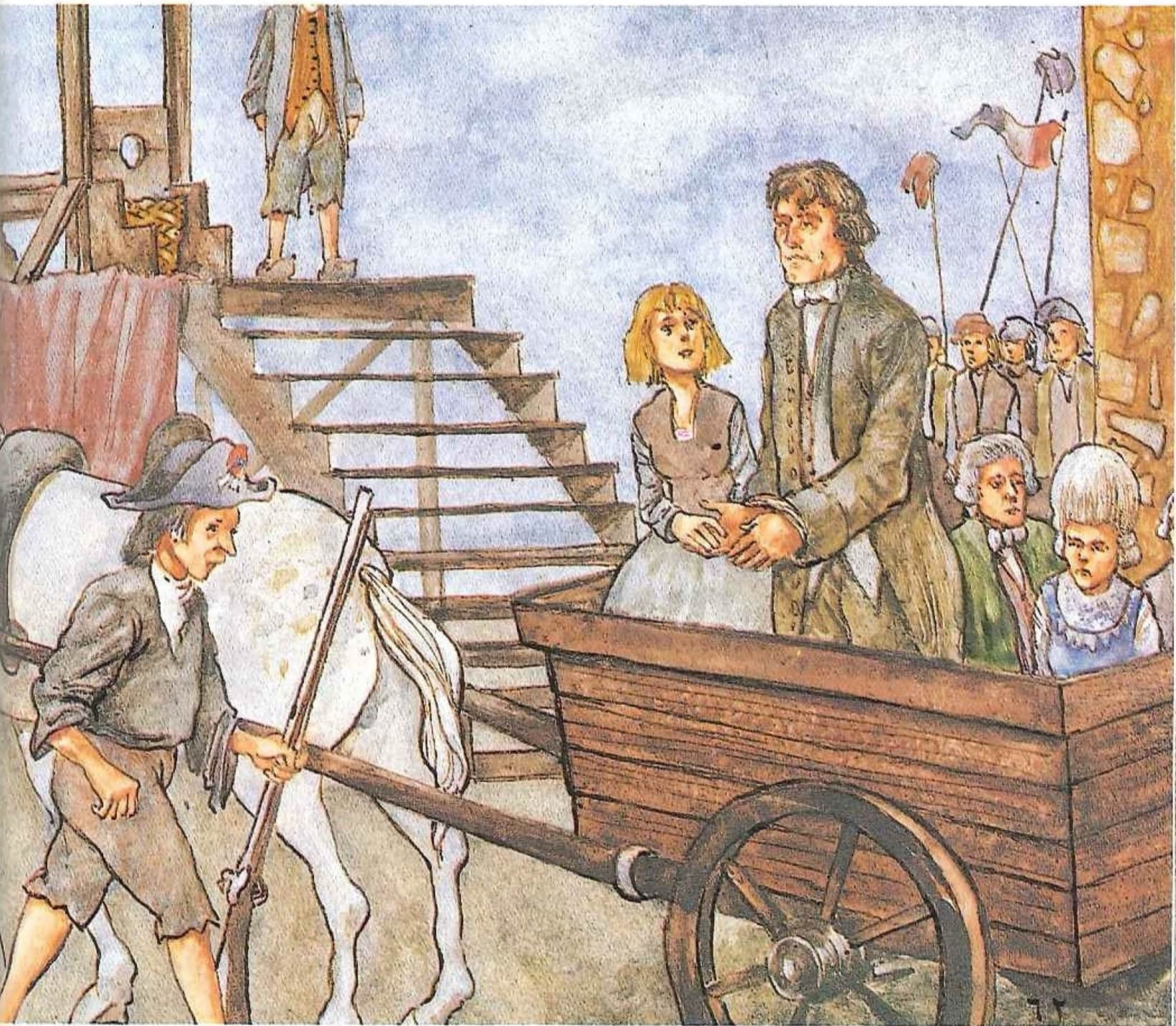


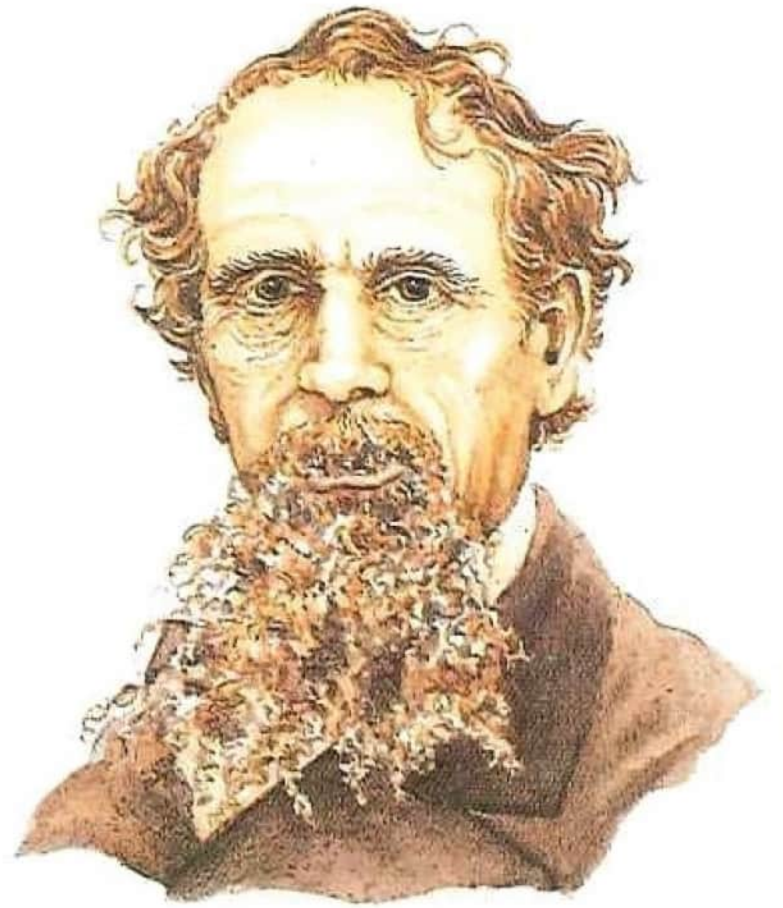
نَجحَتْ خُطَّةُ سيدني كارتون وَٱسْتَطاعَ السَّيِّدُ لوري وَكُلُّ عائِلَةِ الدّكتور مانيت ، ما عَدا الآنِسَةَ بروس وَخادِمَ لوري ، أَنْ يَهْرُبوا بِسَلامٍ . فحَتّى لا يَكونَ هُناكَ أيُّ شَكٍّ بِوُصولِ عَرَبَتَيْنِ إلى نَفْسِ الفِناءِ وَفي نَفْسِ اليَوْمِ ، قَرَّرَ الأثْنانِ الأَخيرانِ الانْطِلاقَ مِنْ مَكانٍ آخَرَ .

وَفي الوَقْتِ الَّذي كانَ فيهِ خادِمُ لوري يُدَبِّرُ تِلْكَ التَّرْتيباتِ اللّازِمَةَ ، ظَلَّتِ الآنِسَةُ بروس في البَيْتِ لِتَوْضيبِ الأَمْتِعَةِ . وَبَيْنَما كانَتْ مُنْهَمِكَةً في البَيْتِ الخالي ، أصابَتْها دَهْشَةٌ فُجائِيَّةٌ لِوُصولِ المُواطِنَةِ تيريز ديفارج الَّتي جاءَتْ خِصِّيصًا لِتَحْصُلَ عَلى دَليلٍ مِنَ المُمْكِنِ أنْ يُساعِدَها عَلى إرْسالِ لوسي وَطِفْلَتِها وَحَتّى الدكتور مانيت نَفْسِهِ إلى المِقْصَلَةِ . وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ كَثيرٌ حَتّى ٱكْتَشَفَتْ تيريز ديفارج ما حَدَثَ . وَعِنْدَما حاوَلَتِ الخُروجَ لِتَنْضَمَّ إلى أَصْدِقائِها المُنْتَظِرينَ في ساحَةِ الإعْدامِ ، تَصَدَّتْ لَها الآنِسَةُ بروس بِكُلِّ إصْرارٍ . وَأَثْناءَ الصِّراعِ المُحْتَدِمِ بَيْنَهُما ، حاوَلَتْ تيريز ديفارج إخْراجَ مُسَدَّسِها المَحْشُوِّ مِنْ مَلابِسِها إلّا أَنَّهُ ٱنْطَلَقَ فَأصابَها هِيَ فَماتَتْ عَلى الفَوْرِ ، وَنَجَتِ الآنِسَةُ بروس بِحَياتِها ، إلّا أَنَّها فَقَدَتْ حاسَّةَ السَّمْعِ تَمامًا . وَنَجَحَتْ في أَنْ تَلْتَقِيَ مَعَ خادِمِ السَّيِّدِ لوري ، حَسَبَ ٱتِّفاقِهِما ، وَفَرّا سَوِيًّا إلى وَطَنِهِما – إنْجِلْترا .

في نَفْسِ الوَقْتِ كانَتِ العَرَباتُ السِّتُّ الَّتي تَحمِلُ الاْثْنَيْنِ وَالخَمْسين ضَحِيَّةً مِنْ سَيِّئي الحَظِّ تَتَهادى بِبُطْءٍ عَبْرَ شَوارِعِ مَدينَةِ باريس . وَفيها سيدني كارتون ، الَّذي حَمَلَتْهُ حَيْثُ لَقِيَ المَوْتَ بِبَسالَةٍ .

أمّا المَدينَةُ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ فَكانَ حَديثُها عَنْ هٰذا الشَّخْصِ النَّبيلِ الَّذي قالَ الجَميعُ عَنْهُ إنَّهُ مِنْ أرَقِّ الوُجوهِ الَّتي رَأَوْها عَلى الإطْلاقِ تَقِفُ أسْفَلَ آلَةِ المَوْتِ اللَّعينَةِ.. المِقْصَلَةِ.





تشارلز ديكنز (١٨١٢ - ١٨٧٠)

وُلِدَ تشارلز ديكنز بالقُرْبِ مِنْ مَدينَةِ «بورتسماوث» في جَنوبِ إنجلترا، وَعِنْدَما بَلَغَ عامَهُ الثّاني انْتَقَلَتْ أُسْرَتُهُ إلى لندن حَيْثُ واصَلَ والِدُهُ عَمَلَهُ كَكاتِبِ حِساباتٍ في القِطاعِ البَحْرِيِّ. وَقَدْ واجَهَتِ الأُسْرَةُ هُناكَ ظُروفًا عَصيبَةً لِسَجْنِ والِدِهِ بِسَبَبِ الدُّيونِ. وَتَوَقَّفَ الطِّفْلُ عَنْ مُواصَلَةِ تَعْليمِهِ بِالمَدارِسِ الحُكومِيَّةِ، وَاضْطُرَّ لِلْعَمَلِ بِمُسْتَوْدَعٍ لِدِهانِ الأَحْذِيَةِ لِيُنْقِذَ عائِلَتَهُ مِنَ غائِلَةِ الجوعِ. وَعِنْدَما بَلَغَ تشارلز الصَّغيرُ سِنَّ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ، أُطْلِقَ سَراحُ والِدِهِ مِنَ السِّجْنِ، وَاسْتَطاعَ تشارلز أَنْ يَتَلَقّى قَدْرًا مِنَ التَّعْليمِ الحُكومِيِّ خِلالَ العامَيْنِ التّالِيَيْنِ. كانَ ذَكِيًّا سَريعَ التَّحْصيلِ، لٰكِنَّهُ هَجَرَ المَدْرَسَةَ لِيَلْتَحِقَ بِوَظيفَةِ كاتِبٍ بِمَكْتَبِ مُحامٍ، حَيْثُ اكْتَسَبَ خِبْرَةً عامَّةً بِأَساليبِ المُحاماةِ وَشُئونِ التَّشْريعِ الإنْجليزِيِّ، ساندَتْهُ في كَثيرٍ مِنْ رِواياتِهِ. خِلالَ تِلْكَ الفَتْرَةِ كانَ تشارلز يَعْمَلُ بِاجْتِهادٍ حَتّى اسْتَطاعَ أَنْ يُصْبِحَ مُحَرِّرًا بَرْلَمانِيًّا، وَهِيَ الوَظيفَةُ الَّتي احْتَرَفَها في وَقْتٍ وَجيزٍ، والَّتي سَمَحَتْ لَهُ أَنْ يَجوبَ البِلادَ شَمالًا وَجَنوبًا مُتابِعًا لِخُطَبِ كِبارِ السِّياسِيّينَ.

كُلُّ هٰذِهِ الخِبْراتِ المُتَنَوِّعَةِ، بِالإضافَةِ إلى ما كانَ يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ دِقَّةِ المُلاحَظَةِ، مَكَّنَتْ ديكنز فيما بَعْدُ مِنْ وَصْفِ النّاسِ وَالأَماكِنِ بِواقِعِيَّةٍ شَديدَةٍ. وَفي عامِ ١٨٣٦

عِنْدَما بَلَغَ الرّابِعَةَ وَالعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ نَشَرَ الجُزْءَ الأَوَّلَ مِنْ «مُذَكّرات بيكويك» الَّتي حَقَّقَتْ نَجاحًا سَريعًا. وَمُذْ ذاكَ كَرَّسَ حَياتَهُ لِكِتابَةِ أعْمالِهِ الرِّوائِيَّةِ الشَّهيرَةِ. وَخِلالَ سِتِّ السَّنَواتِ التّالِيَةِ كَتَبَ رِوايَةَ «أوليڤر تويست» وَرِوايَةَ «نيكولاس نيكلباي» وَرِوايَةَ «مُتْحَف العَجائِب» و«برنابي رودج». وَتَوالَتْ بَعْدَ ذَلِكَ باقي أعْمالِهِ «تَرْنيمَة عيد الميلاد» و«ديڤيد كوپرفيلد» و«بليك هاوس» و«أوْقات عَصيبَة» و«دوريت الصَّغيرَة». وَأخيرًا في عام ١٨٥٩ أَتَمَّ رِواياتِهِ «قِصَّة مَدينَتَيْن» و«الآمالُ العُظمى» و«صديقُنا المُشْتَرَك». وَماتَ عامَ ١٨٧٠.

تَمْتازُ رواياتُ تشارلز ديكنز، فَضْلًا عَنْ كَوْنِها مُمْتِعَةً إلى حَدٍّ كَبيرٍ، بِأَنَّها ذاتُ أبْعادٍ اجْتِماعِيَّةٍ وَأَخْلاقِيَّةٍ؛ فَقَدْ كانَ مُصْلِحًا اجْتِماعِيًّا مُحِبًّا لِخَيْرِ البَشَرِيَّةِ، وَفَوْقَ كُلِّ ذَلِكَ فَقَدْ كَشَفَ النِّقابَ عَنْ مَساوِئِ الفَقْرِ وَقَسْوَةِ قانونِ العقوبات وَنُظُمِ السِّجْنِ وَعَدَمِ رِعايَةِ الأطْفالِ وَعَجْزِ نِظامِ التَّعْليمِ وَعَدَمِ كَفاءَتِهِ. وَاسْتَطاعَ بِذلِكَ أَنْ يُثيرَ قَلَقَ الأُمَّةِ، وأدَّتْ جُهودُهُ إلى الكَثيرِ مِنَ التَّحَسُّنِ في حَياةِ الكَثْرَةِ مِنَ الفُقَراءِ وَالمُعْوِزينَ.

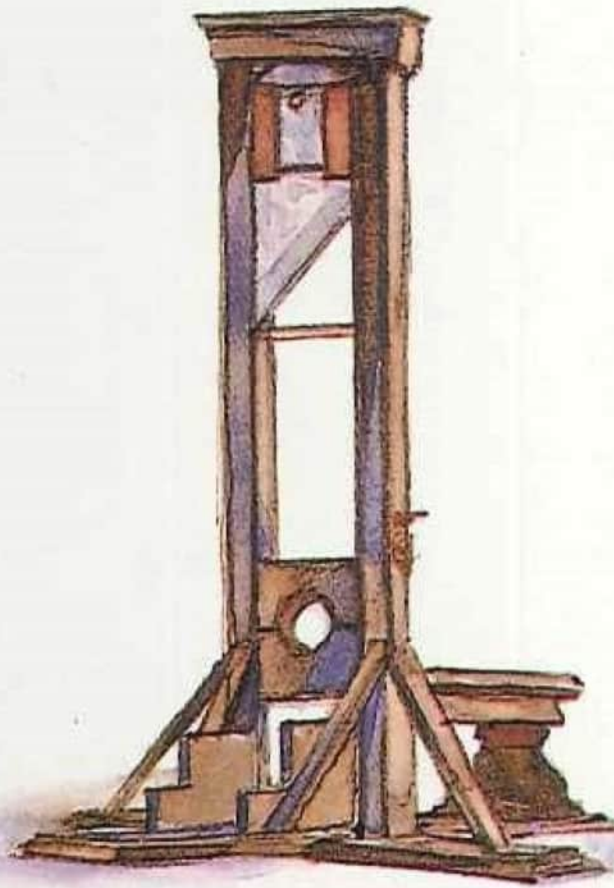




كتب الفراشة

القصص العالميّة ٨. قِصّة مدينتَين

لا جِدالَ في أنّ تشارلز ديكنز مِن كِبارِ الرِّوائيّينَ في تاريخ الأَدَب الإنكليزيّ. وهٰذه الرِّواية، «قِصّة مَدينتَين»، هي أَشْبَهُ بِبانوراما شامِلة لِلأَحْداث السِّياسِيَّة والاجْتِماعِيَّة بَيْنَ لَنْدن وباريس إبّانَ الثَّوْرة الفَرَنْسيَّة وانْعِكاس هٰذه الأَحْداث على حَياة النّاس. كُلُّ ذٰلكَ بِأُسْلوب فَريد حاوَلَ ديكنز، مِن خِلاله، أَن يُظهِر ضَرورَة تَحْقيق العَدالة الاجْتِماعيّة والمُحافَظة على الرَّوابطِ العائِليَّة وتَعْزيز الصَّداقة والتَّعاوُن بينَ النّاس.





مكتبة لبنان ناشرون

القصص العالميّة ٨. قِصّة مَدينتَين
مكتبة لبنان ناشرون